

الموسوعة الشامية في تاريخ الخبز والطبخة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٢)

ألف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

كتاب الاعتبار

لاسامة بن مذكذ الكنانى

(١١٨٨ - ١٠٩٥ / ٥٨٤ - ٤٨٨)

مدخل الى كتاب الاعتبار

تراجم اسامة من :

- تاريخ دمشق لابن عساكر
- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني
- معجم الادباء لياقوت الحموي
- بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم
- وفيات الاعيان لابن خلكان
- المقفى الكبير للمقرئزي .

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتدت فيما تقدم من مجلدات ان يكون موضوع التوطئة الاساسي الحديث عن حياة المؤلف أو المؤلفين ، وهذا ما سوف أبدله في هذا المجلد ، ذلك ان موضوعه الاساسي أشبه بذكرات شخصية فيها ترجمة لحياة المؤلف وتعرّيف بوسطه وعصره ، وهذا المؤلف هو الفارس العربي ، الشاعر الأديب والسياسي أسامة بن منقذ ، الذي غالبا اذا ما أريد التعريف به قيل « صاحب كتاب الاعتبار ».

ويعد كتاب الاعتبار على رأس ادبيات عصر الحروب الصليبية وأهمها ليس لما حواه وانفرد به من مواد اخبارية ثمينة جدا فحسب بل لتمييزه باللون العربي النقي ، فنحن لدى تعاملنا مع نصوص المصادر العربية للحروب الصليبية نلاحظ أنها ركزت على افعال الحكام والقادة الذين كان جلهم من أصل غير عربي ، تركماني أو كردي أو غير ذلك ، وهمشت دور العناصر العربية السياسية والقبلية ، حتى باتت صورة الصراع أشبه بصراع بين قوى أجنبية مسلمة من جانب ومسيحية من الجانب الآخر على بلاد الشام ومصر والجزيرة .

وصحيح ان القوى السياسية العربية من التكتلات القبلية قد تأثرت كثيرا إثر قدوم السلاجقة ، وهو ما شاهدناه في الجزء الاول من هذه الموسوعة ، لكن الآن من خلال ماكتبه أسامة مع معطيات أخرى يمكننا التأكيد على ان دور القوى العربية والتكتلات القبلية ظل فعالا واساسيا ، واذا ما أضيف لهذا حقيقة كون سكان بلاد الشام عربا في المدن والارياف . هنا يمكننا شطب مقولة الصراع بين

قوتين أجنبيتين ، واستبدالها بأخرى بأن الصراع بين غزاة أجنب
في كل شيء قدموا من أوروبا وبين أصحاب البلاد العرب .

وحتى تزداد الفائدة من كتاب الاعتبار صنعت له مدخلا وخاتمة ،
أودعت في المدخل عدة تراجم لأسامة ، كما أودعت في الخاتمة
ترجمتين لاثنتين من الاعلام الذين كان لأسامة بهم علاقة مباشرة .

وعلي أن أشير إلى أن كتاب الاعتبار نشر أكثر من مرة ، اعتمادا
على مخطوطة وحيدة مبتورة الأول كانت موجودة في مكتبة دير
الاسكوريال قرب مدريد في اسبانيا ، ومن أشهر الذين عملوا على
تحقيق هذا الكتاب فيليب حتي ، وقد نشرها في برنستون بالولايات
المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠ ، وقد بذل الدكتور حتي جهودا كبيرة
لدى تحقيقه لنص الكتاب ، لكنه اخفق في كثير من الاماكن في
الوصول الى القراءة الصحيحة ، وتميز الدكتور حتي بأنه أودع في
الحواشي رسم الكلمات التي لم يتوصل الى قراءتها بالشكل الصحيح
أو شك بها ، وكان لهذا فوائده الجلية ، لأن مخطوطة الكتاب
مفقودة الآن ، وبعد الدكتور حتي أعيد نشر الكتاب كاملا أو
مختصرا أكثر من مرة وفي أكثر من مكان ، ومع هذا ظلت النجاحات
هي هي .

ويخيل لي أنني في عملي الآن تمكنت من تقويم النص وإزالة
مشاكله ، وساعدني على ذلك عدة عوامل ، بينها الانتماء الجغرافي،
والممارسة الطويلة والخبرة المعمقة بكتب التراث العربي ،
ولتخصصي الآن وانقطاعي شبه الكامل للعمل في أحداث الحروب
الصليبية .

ان لغة أسامة في كتابه « الاعتبار » واصطلاحاته ممازالت قائمة
حتى الآن في بيئة مدينة حماه ، وهي مدينتي التي نشأت بها ، فضلا
عن أنني عشت عدة سنوات في المنطقة القريبة من شيزر ، وكان لهذا
فوائده .

- ٥٤٤٩ -

الكتاب الآن بين يدي القراء جميعا ، وأملني كبير في أن أكون قد
وفقت في عملي ، والله المستعان وله الحمد والمنة ، ومنه جل وعلا
أسأل دوما التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا ونبيينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سهيل زكار

دمشق ٩ ، ٤ ، ١٩٩٥

اسامة بن مرشد بن علي

ابن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم
- ابو المظفر الكتاني ، الملقب بمؤيد الدولة
(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

له يد بيضاء في الادب والكتابة والشعر .
ذكر لي انه ولد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، وقدم دمشق سنة
اثنيتين وثلاثين وخمسمئة ، وخدم بها السلطان وقرب منه ؛ وكان
فارسا شجاعا ، ثم خرج الى مصر فاقام بها مدة ، ثم رجع الى
الشام وسكن حماة ؛ واجتمعت به بدمشق ، واذشني قصائد من
شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمئة .

قال لي ابو عبد الله محمد بن الحسن بن المالحى : الامير مؤيد الدولة
اسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل النهر ؛ مالك عنان النظم
والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة ابيه ، ليس يستقصى
وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لا يفرق
بينها وبين شعر ابن الوليد (١) ؛ غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر
لفظه العالي في شيء من فضولها ، والمقطعات فاحلى من الشهد ،
والذ من الذوم بعد طول السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب .
كتب على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرها وما سكنت
روحي الى شجن فيها ولا سكن

- ٥٤٥١ -

والقبر استر لي منها واجمل بي
ان صدني الدهر عن عودي الى وطني (٢)

وكتب الى اخيه :

عجمتني الخطوب حينما فلما
عجزت ان تطيق مساغا
لفظتني وسالقتني فقد عا
د حذاري امنا وشغلي فراغا
واخو الصبر في الحوادث ان لم
يلقه الحين مدرك ما اراغا (٣)

وكتب على حائط جامع :

هذا كتاب فتى احلته الذوى
اوطانها ونبت به اوطانه
شطت به عن حب بياره
وتفرقت ايدي سبا اخوانه
متتابع الزفرات بين ضلوعه
قلب يبوح ببثه خفقانه
تاوي إليه مع الظلام همومه
وتذوده عن نومه أشجانه
لكنه لا يستكين لحادث
خوف الحمام ولايراع حنانه
ألفت مقارعة الكمأة جياده
وسرى الهواجر لايني نملانه

- ٥٤٥٢ -

يومان أجمع دهره إما سرى
أو يوم حرب تلتظي نيرانه (٤)

أندشدني أبو المظفر :

نافقت دهرى فوجهي ضاحك جذل
طلاق وقلبي كئيب مكمد باكي
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي (٥)

واندشدني ايضا:

اصبحت لا اشكو الخطوب وانما
اشكو زمانا لم يدع لي مشتكي
افنى اخلائي واهل مودتي
واباد اخوان الصفاء واهلكا
عاشوا براحتهم ومث لفقدهم
فعلي يبكي لا عليهم من بكى
وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٦)

واندشدني ايضا :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
خوض المهالك والفيافي الفيح
ابكيتم عيني دما فكانما
اذسانها بيد الفراق جريح
فكان قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح (٧)

وانشدني ايضا :

يامؤيسي بتجنيه وهجرته
هل حرم الحب تسويفي وتعليلي
يبدي لي اليأس تصرّحا فتكذبه
طماعي وأرى والامال تملي لي

وقد رضيت قليلا منك تبذله
فما احتيالي اذا استكثرت تقليلي (٨)

وانشدني ماقاله في خرس له قلعة :

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لذفعي ويسعى سعي مجتهد

لم يبد لي مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (٩)

وانشدني :

ومماذق رجع النداء جوابه
فاذا عرا خطب فابعد من دعي

مثل الصدى يخفى علي مكانه
ابدا ويملا بالاجابة مسمعي (١٠)

وانشدني مما عمله بقيسارية :

اراني نهار الشيب قصدي وطالما
تجاوز بي ليل الشباب سبيلي

وقد كان عذري ان اضلني الدجى
فهل لي عذر والنهار دليلي (١١)

وانشدنا :

إذا ماعدا دهر من الخطب قاصطير
فان الليالي بالخطوب حوامل
وكل الذي يأتي به الدهر زائل
سريعا فلا تجزع لما هو زائل (١٢)

وانشدني :

لاتخدعن باطماع تزخرفها
لك المنى بحديث المين والخدع
قلو كشفت عن الهلكى باجمعهم
وجدت هلكهم في الحرص والطمع (١٣)

وانشدني :

لادر درك من رجاء كاذب
يعترنا بورود لامع لال
ابدا يسوفنا بنصرة خاذل
ووفاء خوان وعطفة قال
ويرى سبيل الرشد لكن مالنا
عزم مع الاهواء والامال (١٤)

وانشدني مما قاله بمصر :

انظر الى صرف دهري كيف عويني
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

- ٥٤٥٥ -

تغاير من صروف الدهر معتبر
واي حال على الايام لم يحل
قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
اضرمتها باقتداح البيض في القل
همي منازل الاقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل
امضى على الهول من ليل واهجم من
سيل واقدام في الهيجاء من اجل
فصرت كالغادة المكسال مضجعتها
على الحشايا وراء السجف والكلل
قد كدت اعفن من طول الثواء كما
يصدي المهند طول اللبث في الخل
أروح بعد دروع الحرب في حلال
من الدبيقي فبؤسا لي والحلل
وما الرفاهة من رأيي وطري
ولاالتنعم من همي ولاشغلي
ولست ارضى بلوغ المجد في رفة
ولالاعلا دون حطم البيض والاسل (١٥)
واندشنني بعد ماقاله في خروجه من مصر ، قال :
اليك فلا تتثني شؤونك شاني
ولا تملك العين الحسان عناني
ولا تجزعي من بغة البين واصبري
لعل التثائي معقب لتداني

- ٥٤٥٦ -

فللاسد غيل حيث حلت وانما
يهاب التنائي قلب كل هدان

ولاتحملي هم اغترابي فلم ازل
غريب وفاء في الورى وبيان

وفيا اذا ماخان جفن لناظر
ولم يرع كف صحبة لبنان

ارى الغدر عارا يكتب الدهر وصمة
ويقراه ما بين الملا الملوان

ولاتسأليني عن زماني فانني
انزه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن سلي عني الزمان فانه
يحدث عن صبري على الحدثان

رمتني الليالي بالخطوب جهالة
بصبري على مانابني وعراني

فما اوهنت عزمي الرزايا ولالها
بحسن اضطباري في الملم يدان

وكم نكبة ظن العدى انها الردى
سمت بي واعلت في البرية شاني

وماانا ممن يستكين لحادث
ولايملا الهول المخوف جناني

وان كان دهري غال وفري فلم يغل
ثنائي ولاذكرى بكل مكان

وماكان الا للذوال وللقرى
وغوثا للهوف وفدية عان

- ٥٤٥٧ -

حمدت على حالي يسار وعسرة
وبرزت في يومي ندى وطعان

ولم ابخر الدهر ان راب او نبا
وللخطب الا صارمي وسناني

لان جميل الذكر يبقى لاهله
وكل الذي فوق البسيطة فان (١٦)

الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني

ابن علي بن مقلد بن نصر بن منذ بن محمد بن منذ بن نصر بن
هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث
ابن عامر بن مالك بن مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد
اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن
عمران بن الحاف بن قضاة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن
مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن
ارفخش بن سام بن نوح بن لك بن متوشلخ بن اخذوخ بن يرد بن
مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن ادم عليه السلام .

اسامة كاسمه ، في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه اماره الامارة ،
ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم
السلام ، ولزم طريق السلامة ، وتكذب سبل الملامة ، واشتغل
بنفسه ، ومحاوره ابناء جندسه ، حلوا المجالسة ، حالي المساجلة ،
ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل
التصارييف ، مطبوع التصانيف ، اسكنه عشق الغوطة ، بدمشق
المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبوا الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فيقي
بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى ايام ابن رزيك فعاد الى
الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام ، حتى اخذت شيزر من
اهله ، ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا
مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده ، حتى اعاد الله دمشق الى
سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ،
ولم يزل مشغوقا بذكره ، مستهترا باشاعة نظمته ونثره ، والامير
العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ، ونبيمه وانيسه ،
فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين ، وكنت قد طالعت

- ٥٤٥٩ -

منيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشدني العامري له
باصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت اتمنى ابدا لقياه ، واشيم على
البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته
عن مولده ، فقال : سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، يوم الاحد السابع
والعشرين من جمادى الاخرة . وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا
له ، في قلع ضرسه :

وصاحب لا امل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (١٧)

لو انصفت فهمك ان كنت منتقدا ، فرقيت عن مرقب وهمك
مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد درره
ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغو ، وانه اذا لم يبلغ
هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومن الذي اتى في وصف السن
المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهل
ساواه في هذا النمط سواه .

وانشدني ايضا لنفسه ، في معنى قلع ضرسه :

وصاحب صاحبي في الصبا
حتى تربيت رداء المشيب

لم يبد لي ستين حولاً ولا
بلوت من اخلاقه ما يريب

افسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ، ومثلي ابدا لا يصيب

- ٥٤٦٠ -

فاعجب لها من فرقة باعدت
بين الفين وكل حبيب (١٨)

وانشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا
واخو المشيب يحور ثمت يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدلّه
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عدت سني ثم نقصتها
زمن الهموم ، فذلك ساعة مولدي (١٩)

تعجب من مقاصد هذه الكلم ، وتعرض لموارد هذه الحكم ،
واقض العجب كل العجب ، من غزارة هذا الادب ، ولولا ان المداد
افضل ما ترقم به صحائف الكتب ، لحررت هذه الايات بماء
الذهب ، فهذا ابلغ من قول ابي فراس بن حمدان:

ما العمر ما طالت به الدهور
العمر ما تم به السرور

ايام عزي ونفاذ امري
هي التي احسبها من عمري (٢٠)

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره
في بيت واحد ولم يجعل له نصيبا من العمر الا ساعة مـولده . فجميع
الحياة على الحقيقة نصب ، والم وتعب .
وانشدني ايضا لنفسه من قديم نظمه :

تجرم حتى مللت عتابة
واعرضت عنه لا اريد اقترابه

- ٥٤٦١ -

اذا سقطت من مفرق المرء شعرة
تأفف منها ان تمس ثيابه (٢١)

وانشدني من قديم قوله في السلوان ايضا :

لم يبق لي في هواكم ارب
سلوتكم ، والقلوب تنقلب

اوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تذعّب

الام دمعي من هجركم سرب
فان ، وقلبي ومن غدركم يجب

ان كان هذا تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ما حسبوا (٢٢)

تأمل هذه المعاني والاييات ، بعين التأني والثبات ، تعرف ان
قائلها من ذوي الحمية ، والذفوس الالية ، والهمم العلية ، وكل من
يملك الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا ان يكون
كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه .
وقوله : « فقد اعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، اعذب
من الزلال ، واطيب من السحر الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من
نسيم الشمال .

وقوله ايضا من قديم شعره :

اذا اخذت في الهوى عني اساءته
ابدى تجنيه نذبي قبل اجنيه

- ٥٤٦٢ -

كذلك انسان عيني لا يزال يرى
عيبي ، ولست ارى العيب الذي فيه (٢٣)

وقوله ايضا :

يادهر مالك لا يصد
ك عن اساءتي العتاب
امرضت من اهوى ويا
بي ان امرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٢٤)

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع لديه ومبتدع
فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى ، طريفة المعنى ، مقصدها
سهيل ، وموردها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها
عقل ، ولا شك ان حبيبه عند استنشاق هوائها ، فاز ببرء مهجته
وشفاؤها .

هذه الابيات كنت نقلتها من تاريخ السمعاني فلما لقيت مؤيد
الدولة قرأتها عليه ، وكنت اثبتها على هذا الوجه ، ابصر مني
العينان ، وان لم يحط السمعان ، من انباء تاريخ السمعاني ،
الحاوي للمعاني ، ابياتا رواها ، وناظمها بماء الحكمة رواها ، وقد
بددتها في كتابي هذا غيرة من الملتقط ، وحفظا لها من العيب المشتط
المشترط . واما اشعاره التي اذشنيها بدمشق سنة احدى وسبعين
من نظمه على الكبير قوله حين قلت له : هل لك معنى مبتكر في الشيب

لو كان صد معاتباً ومغاضباً
ارضيته وتركت خدي شائباً

- ٥٤٦٣ -

لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا

ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا

وابيه ، ما ظلم المشيب وانه
املي ، فقلت عساه عني راغبا

انا كالدجى لما تنهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا (٢٥)

وهذا معنى مبتكر في الشيب لم يسبق اليه :
وقوله

اذستني الايام ايام الصبا
ونهلكت عن طيب الزمان الذاهب
وتذكرت حالي فكل مأربي
فيما مضى ما هن لي بمأرب

وقوله :

نهار الشيب يكشف كل ريب
تكفل ستره ليل الشباب
ينم على المعاييب والمساوي
كما نم النصول على الخضاب
فهل لي بعد أن ضحى بفودي
نهار الشيب ، عذر في التصابي

- ٥٤٦٤ -

. وقوله :

افدي بدورا تماالوا
على الملل ولجوا
قد كنت احسب اني
من هجركم است انجو
هذا الذي كنت اخشى
فأين ماكنت ارجو

وقوله :

قل للذي خضب المشيب جهالة
دع عنك ذا فلكل صبيغ ماح
او ماترى صبيغ الليالي كلما
جددنه يمحوه ضوء صباح

وقوله في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما
حبست لميزتها على الانداد
وتهديوك وانت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغمار
مالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للاساد

وانشدني قوله في الشمعة :

انظر الى حسن الشمع يظهر لل
رائين نورا وفيه النار تستعر

- ٥٤٦٥ -

كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الهم منقطر (٢٦)

وقوله :

لارمين بذقي كل مهلكة
مخوفة يتحاماها ذوو الباس
حتى اصادف حذقي فهو اجمل بي
من الخمول واستغني عن الناس

وقوله :

العجز لا ينقص رزقا ولا
يزيده حول ولا فحص
كل له رزق سيأتيه لا
زيادة فيه ولا نقص
قدضمن الله لنا رزقنا
جاءت به الاثار والنص
فما لنا نطلب من غيره
لولا قدووط النفس والحرص

وقوله في نفاق الدهر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق ، وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ، ولذتها
لو امكنت ، لاتساوي ذلة الشاكي

- ٥٤٦٦ -

قد تمكنت كلمة « لو امكنك » فما احسنها موقعا ، واجملها موضعا ،
ثم قارن اللذة بالذلة وهما متجانسان .
وقوله :

اذا حال حالك صبيغ الشباب
سقى عهده الغيث من حائل

فماذا الغرور بزور الخضا
ب لولا التعلل بالباطل

وقوله من قديم شعره :

أأن غض دهري من جماحي اوثنى
عناني او زلت باخمي النعل

تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنة في الصدر ابرزها الجهل

وهل انا الا السيف قلل حده
قراع الاعادي ثم ارفقه الصقل (٢٧)

وقوله :

لاتوص عند الموت إل
لا بالويعة والديون

ودع التشاغل بالخطا
م كفاك شغلك بالمنون

فوصية الاموات بالا
حياء من شعب الجنون

- ٥٤٦٧ -

وما احسن بيت المعري :

يوصي الفتى عند الممات كأنه
يمر فيقضي حاجة ويعود

ورأيته وقد اهدي له دهن البلسان ، فسألت عنه ، فقال : كتبت
الى المذهب الحكيم ابن النقاش هذه الابيات على لسان :

ركبتي تخدم المذهب في العمل
م وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ
.. عمر في ضعفها ومر الزمان

فبها فاقة الى ما يقوي
ها على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن حا
زالثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة من بعد طول الـ
.. عمر ، والموت غاية الانسان

وقوله:

لاتحسنن على البقاء معمرنا
فالموت اسر مايؤول اله
واذا دعوت بطول عمر لامريء
فاعلم بانك قد دعوت عليه

وقوله

يارب عفوا عن مس
يء خائف ما كان منه
متيقن ان سوف يصل
ي النار ان لم تعف عنه
لما اذشدني في الشيب لذفي
ليل الشباب تولى
والشيب صبح تالو
ما الشيب الا غبار
من ركض عمري تعلق
وقلت :
ما اظن اني سبقت الى هذا المعنى فاذشد لبعضهم بيتين هما
قالوا غبار قد علا
ك فقلت: ذا غير الغبار
هذا الذي نقل الملو
ك الى القبور من الديار

قلت : ولكن حققت انه من غبار ركض العمر ، وهو معنى مبتكر .
وحضرت عند الامير مؤيد الدولة اسامة يوما اخر بدمشق سنة احدى
وسبعين ، فاذشدني قوله في القديم في استدعاء صديق الى مجلس
المنادمة بالموصل وقد غاب عنها :

امهذب الدين استمع من عاتب .
لولا وداك لم يفه بعتاب

- ٥٤٦٩ -

اتطيع في الدهر وهو كما ترى
يقضي علي بفرقة الاحباب

امللتني وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، ام لم تستحل شرايم

قسما لئن لم تأتني متنصلا
متبرعا بالعذر والاعتاب

لاحرمن الخندريس واغتدي
متنمسا بالماء والمحراب

وتبوء معتمدا باثم تنسكي
وبعابه ، اعظم به من عاب

وقوله في الشوق والمكاتبة :

لو ان كتبي بقدر الشوق واصلة
تتابعت كدموعي او كأنفاسي

وان وجدت سيلا او قدرت على
خلاص عقل اسير في يد الكاس

اجريت اسود عيني فوق ابيضها
بمائها لامدادا فوق قرطاس

وقلت للشوق ياسحبان امل على
يدي ، اعيزك من عي وابلاس

حتى ابوح بما اشكو اليك كما
باح المريض بشكواه الى الاسي

وقوله في العذار :

انظر شماتة عاذلي وسروره
بكسوف بدري واشتهار محاقه
غطى ظلام الشعر من وجناته
صبحا تضيء الارض من اشراقه
وهو الجهول يقول هذا عارض
هو عارض لكن على عشاقه (٢٨)

واتشدني ايضا لنفسه :

ما انت اول من تناءت داره
فعلام قلبك ليس تخبو ناره
اما السلو او الحمام ، وما سوى
هذين قسم ثالث تختاره
هذا وقوفك للوداع وهذه
اطلعان من تهوى وتلك بياره
فاستبق دمعك فهو اول خاذل
بعد الفراق وان طما تياره
فذر الدموع ثقل عن امد الذوى
ان لم يكن من لجة تمتاره
ليت المطايا ما خلقتن فكم دم
سفكته ، يثقل غيرها اوزاره
ما حثف انفسنا سراها انها
لهي الحمام اتيح او انذاره

- ٥٤٧١ -

لو ان كل العيس ناقة صالح
ماساءني اني الغداة قذاره (٢٩)

وتناشدنا بيتا للوزير المغربي (٣٠) في وصف خفقان القلب
وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الريح وهو :

كان قلبي اذا عن اذ كاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة : لقد شبهت القلب الخافق وبالغت
في تشبيهه وارييب عليه في قولي من ابيات هي :

احبابنا ، كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامه والفيافي القبيح

ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح

والبيت المشار اليه :

وكان قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له: صدقت ، فان الوزير المغربي قصد تشبيه خفقان القلب
وانت شبهت القلب الواجد باللهب ، وخفقائه باضطرابه عند
اضطرامه لتعاور الريح ، فقد ارييت بالفصاحة على ذلك الفصيح .
وانشدني ايضا من قوله ايام شبابه وهو معتقل وقد جرى ذكر
الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بؤنا مرتاب

- ٥٤٧٢ -

نفسى فداؤك من حبيب زائر
متعجب عندي له الاعتبار

مستشرف كالبدر خلف حجابيه
او في الكرى ايضا عليك حجاب

ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الاسباب

ثبت فلا طول الزيارة ناقص
منه ، وليس يزيده الاغياب

حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب (٣١)

قلت له احسنت . وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري في الخيال :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
القيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا في بعد المسافة :

ونكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من امد الذوى المتطاوّل

وعذرت طيفك في الجفاء فإنه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

ثم انشدني الامير اسامة قصيدة ذونية ، لنفسه ، منها :

محيا ماأرى ام بدر دجن
وبارق مبسم ام برق مزّن

- ٥٤٧٣ -

وثغر ام لآل ام اقاح
وريق ام رحيق بنت دن
ولحظ ام سنان ركبوه
باسمر من نبات الخط لدن

ومنها :

فيا من منه قلبي في سعي
وعيني منه في جنات عدن
اذا فكرت في انفاق عمري
ضياعا في هواك قرعت سني
واسف كيف اخلق عهد ودي
واسى كيف اخاف فيك ظني
واعجب ما لقيت من الليالي
واي فعالها بي لم يسؤني
تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضمنت عليه جفني (٣٢)
وانشدني لنفسه من قصيدة :
حتام ارغب في مودة زاهد
واروم قرب الدار من متباعد
والام التزم الوفاء لغادر
جان واسهر مقلتي لراقد
واقول هجرته مخافة كاشح
يغري بنا ، وحذار واش حاسد

- ٥٤٧٤ -

واظنه يبدي الجفاء ضرورة
واذا قطيعته قطيعة عامد

ياهاجرا افنى اصطباري هجره
وابتز ثوب تماسكي وتجالدي

كيف السبيل الى وصالك بعدما
عفيت بالهجران سبل مقاصدي

ويلومني في حمل ظلمك جاهل
يلقى جوى قلبي بقلب بارد

يزري على صبري بصبر مسعد
ويصد عن دمعي بطرف جامد

اتراك يعطفك العتاب وقلما
يثني العتاب غنان قلب شارد

هيهات وصالك عند عنقا مغرب
ورضاك ابعد من سهى وفراق

ومن العناء طلاب ود صادق

من ماذق وصلاح قلب فاسد (٣٣)

وانشدني لذفسه في الحباب من ابيات :

وقد علاها حباب
كاللؤلؤ المنظوم

رايت شمس نهار
قد رصعت بالنجوم

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ليلة ، وكان يلعب
بالشطرنج ، فقال لي الامير اسامة : اما انشدك البيتين اللذين
قلت هما في الشطرنج ؟ فقلت : هات . فانشدني لذفسه :

- ٥٤٧٥ -

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ، ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها وما فيها

وانشدني لذفسه ، وقد نظمه في غرض له في نور الدين رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش (٣٤)

وانشدني لذفسه :

أحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر ، والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقى

كأنا اخذنا من صروف زماننا
امانا ومن جور الحوادث موثقا (٣٥)

وقال :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا

وتلهبت خجلا ، فلولا ماؤها
مترقرا فيها لصار حريقا

وازور عني مطرقا فأضلني
أن أهتدي نحو السلو طريقا (٣٦)

- ٥٤٧٦ -

وقال :

صد عني وأعرضا
وتناسى الذي مضى

واستمر الصدود وان
قطع الوصل وانقضى

واختفت في الهوى ندو
ب بدت حين أبغضا

صرح الان هجره
لي بما كان عرضا

كل عيب يبين في السـ
خط يخفى مع الرضا

واذا استعطف الملو
ل تجنى وأعرضا

ليت من ملني وأز
حل جسمي وأمرضا

عاد بالوصل أو قضى

في العدل إذ قضى (٣٧)

وقال :

وأقول للعين في يوم الوداع وقد
فاضت بدمع على الخدين مستبق

تزودي اليوم من توبيعهم نظرا
ثم افرغي في غد للدمع والارق (٣٨)

وقال في المعنى :

يا عين في ساعة التوبيع يشغلك ال
بكاء عن آخر التسليم والنظر
خذي بحظك منهم قبل بينهم
ثم اجهدي بعدهم الدمع والسهرة (٣٩)

وقال :

يامدعي الصبر عن أحبابه ، وله
دمع إذا حن ذكراهم يكذبه
خلفت قلبك في أرض الشأم وقد
أصبحت في مصر يامغرور تطلبه
هلا غداة الذوى استصحبته وإذا امر
تار المقام فهلا كنت تصحبه
أفردته بالاسى في دار غربته
وعدت ، لاعدت ، تبكيه وتندبه
هيهات قد حالت الايام بينكما
فعرّ نفسك عما عز مطلبه

وقال :

صبري على فقد إخواني وفرقتهم
غدر ، وأجمل بي من صبري الجزع
تقاسمتهم ذوى شطت بهم وردى
فالحى كالميت ما في قربه طمع
وأصبحت وحشة الغبراء دونهم
من بعد أنسى بهم والشملى مجتمع

- ٥٤٧٨ -

وعشت مذفردا منهم وأقسم ما
يكاد مذفرد بالعيش ينتفع (٤٠)

وقال :

ما حيلتي في الملول يظلمني
وليس إن جار منه لي جار
وداده كالسحاب منتقل
وعهده كالسراب غرار
أمن ما كنت منه فاجأني
بغدره ، واللول غدار
عوني عليه مدامع سفح
وزفرة دون حرها النار (٤١)

وقال :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنما
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكى
أفنى أخلائي وأهل مودتي
وأباد إخوان الصفاء وأهلكا
عاشوا براحتهم ومث لفقدهم
فعلي يبكي ، لا عليهم ، من بكا
وبقيت بعدهم كأني حائر
بمقازة لم يلق فيها مسلكا (٤٢)

وقال :

ونازح في فؤادي من هواه صدى
لم يرو غلته علي ولا نهلي

- ٥٤٧٩ -

في فيه ما في جنان الخلد من درر
ومن رضاب ومن خمر ومن عسل
لو كنت أعلم أن البين يفجؤني
وريت ، قبل الذوى ، قلبي من القبل (٤٣)

وقال :

إن يحسدوا في السلم منـ .
زلتي من العز المنيف
فبما أهين النفس في
يوم الوغى بين الصفوف
لطالما أقدمت إقـ
دام الحدوف على الحدوف
بعزيمة أمضى على
حد السيوف من السيوف (٤٤)

وقال :

إلق الخطوب إذا طرقـ
من بقلب محتسب صبور
فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور
فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير (٤٥)

وقال :

بكاء مثلي من وشك الذوى سفه
وأمر صبري بعد البين مشتبه

- ٥٤٨٠ -

فما يسوفني في قريبهم أمل
وليس في اليأس لي روح ولارفه

أكاتم الناس أشجاني وأحسبها
تخفى ، فيعلنها الاسقام والموله

كانني من زهول الهم في سنة
وناظري قرح الاجفان منتبه

أذنبت ثم أحلت الذنب من سفه
على الذوى ولبئس العادة السفه

أقمت طوعا وساروا ثم أندبهم
هلا صحبت نواهم حيث ما اتجهوا

أضر بي ناظر تدمى محاجره
وخاطر مذناؤا حيران منشه

فما يلائم ذا بعد الذوى فرح
ولا يروق لهذا منظر نزه

سقيا لدهر نعمنا في غضارته
إذ في الحوادث عما ساءنا بله

وعيشنا لم يخالط صفوه كدر
وودنا لم تشب اخلاصه الشبه

مضى وجاء زمان لانسر به
كل البرية منه في الذي كرهوا (٤٦)

وقال في الزهد :

مثوبة الفاقد عن فقد
بصبره ، أنفع من وجده

- ٥٤٨١ -

يبكيه في حزن عليه فهل
يطمنع في التخليد من بعده:

ما حيلة الناس وهل من يد
لهم بدفع الموت أو صده

وروده لا بد منه ، فما
ينكر ما لا بد من ورده

سهامه لم يستطع ردها
داوود بالحكم من سرده

ولا سليمان ابنه ردها
بملكه والحدش من جنده

عدل تساوى الخلق فيه فما
يميز المالك من عبده

كل له حد إذا ما انتهى
إليه وافاه على حده

تجمعنا الارض ، وكل أمرى
في لحده كالطفل في مهده

أما ترى أسلافنا عرسوا
بمنزل دان على بعده

تبؤوا الارض ولم يخبروا
عن حر مثواهم ولا برده

لحادث أسكتهم أمسكوا
عن ابتداء القول أو رده

لونطقوا قالوا التقى خير ما
تزود العبد إلى لحده

- ٥٤٨٢ -

فارجع إلى الله وثق بالذي
أنتاك في الصادق من وعده
للسابرين الاجر ، والامن من
عذابه ، والفوز في خلدته (٤٧)

وقال :

أيها المغرور مهلا
بلغ العمر مداه
كم عسى من جاوز السـ
بعين يبقى كم عساه
أنسيت الموت أم ، أمـ
ذلك الله لظاه
تظلم الناس لمن تر
جوه أو تخشى سطاها
أنت كالتنور يصلى السـ
نار في نفع واه

وقال يرثي ولدا له :

أزور قبرك والاشجان تمنعني
من أن أرى نهج قصدي حين أنصرف
فما أرى غير أحجار منضدة
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف
فأنتني لست أدري أين منقلبي
كأنني خائف في الليل يعتسف
إن قصر العمر بي عن أن أرى خالفا
له ففي الاجر عند الله لي خلف

- ٥٤٨٣ -

أقول للنفس إذ جد النزاع بها
يا نفس ويحك أين الأهل والسلف

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم
وكلهم بورود الموت معترف

كم ذا التأسف أم كم ذا الحنين وهل
يرد من قد حواه قبره الأسف (٤٨)

وقال:

تقلب أحوال الزمان أفانني
جميل الاسبى فيما يذوب من الخطب
إذا حل ما لا يستطاع دفاعه
فما أجمل الصبر الجميل بذى اللب

وقال :

صبرا لا يام تنـا
هت ، في معاندتي وعضي
فالدهر كالميزان ما
ينفك من رفع وخفض
هذا مع الافلاك مر
تفع وذا بحضيض أرض
والى الفناء جميع من
خفضته أو رفعتة يفضي

وقال :

أرجأت كتبي إلى حين اللقاء فقد
أكدى رجائي ، وزاد الشوق إرجائي

والجأنتني إلى صبري موانع أبيه
سامي فلم يسئلني سعيي والجانبي

حتى أحاطت بي الأشواق واشتملت
علي واستحوذت من كل أرجائي

فهل سبيل إلى قرب يميظ شجا
صدري فقد طال تبريحي وإشجاني

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده
فضلا على الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابسا
تنبو عن المترفع المختال

إن السيول إلى القرار سريعة
والسيل حرب للمكان العالي (٤٩)

وقال وكتب بها الى ولده الامير مرهف من حصن كيفا جوابا عن
كتاب أنفذه إليه مع مستميح لم يتمكن من بلوغ مأثره من بره :

أبا الفوارس ، ما لاقيت من زمني
أشد من قبضة كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي

- ٥٤٨٥ -

صرت إن هزني جان تعود أن
يجني نداي. رأني يابس العود

وقال في المعنى :

أبا الفوارس إن أنكرت قبض يدي
من بعد بسطتها بالجود والكرم

الذنب للموت أرجاني. إلى زمن
غلت. أكف. الندى يؤساه بالعدم

وقال :

حذرتني تجاربي صحبة العا.
لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب
قلت ما لي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد. لدى اليأس -
ر ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم
راحة اليأس من حذار وذل.

وقال :

سقوف الدور في خربرت (٥٠) سود
كستها التار أثواب الحداد.

فلا تعجب إذا ارتفعت علينا
فلحظ اعتناء بالسواد

بياض العين يكسوها. جمالا
وليس النور إلا في السواد

- ٥٤٨٦ -

وذور الشيب مكروه ، وتهوى
سواد الشعر أصناف العباد
وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وقال يرثي ولده غثيقا :

غالبتني عليك أيدي المنايا
ولها في النفوس أمر مطاع
فتخلّيت عنك عجزا ولولا أغـ
خني دفاعي لطلّ عنك الدفاع
وأزادت جميل صبري فزامت
مطلباء في الخطوب لا يستطاع

وقال نفيه :

كلما امتد ناظري رده الدمـ
يع حسيرا عن أن يرى لك شبها
لم يزقني من بعد فقدك مرأى
فيه العين مستراد وملهى
كنت عندي ألد من رعد العيـ
ش وأحلى من الحياة وأشهى

وقال في مدح الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشا
واليمن :

سمعت صروف الدهر قول الغائب
وتجنبت حرب الملك الحارب

- ٥٤٨٧ -

وتجافت الايام عن مطلوبه
ومراده ، أكرم به من طالب
هو من عرفن قلوب عساه نهاره
لرماء نفع جيوشه بغياهب
وإذا سطا أضحت قلوب عدااته
تلوى كمخراق (٥١) بكفي لاعب
من ذا يناوي الناصر الملك الذي
في كفه بحرا ردى ومواهب
وإذا سرى خلت البسيطة لجة
أماجها بيض وبيض قواضب
ملك القلوب محبة ومهابة
فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

وله في الشيب والانحناء والعصا :

حناني الدهر وأبـ
للتني الليالي والغير
فصرت كالقوس ومن
عصاي للقوس وتر (٥٢)
اهدج في مشبي وفي
خطوي فتور وقصر
كأنني مقيد
وانما القيدالكبر
والعمر مثل الماء في
آخره يأتي الكدر (٥٣)

وله في الخيال:

ياهاجرا راضيا وغضبانا
ومعرضا هاجدا ويقظانا

هجرت اما لهفوة فرطت
مني اعلم الطيف بالذي كانا (٥٤)

وله:

يهون الخطب ان الدهر ذوغير
وأن أيامه بين الورى دول
وأن ما ساء أو ما سرمنتقل
عنا ، والا فاننا عنه ننتقل

وله:

تناسبني الآجال كأنني
رنية سفر بالفلاة حسير
ولما تدع مني الثمانون منة
كأنني إذا رمت القيام كسير
أؤدي صلاتي قاعدا ، وسجودها
علي إذا رمت السجود ، عسير
وقد انذرتني هذه الحال أنني
كنت رحلة مني وحان مسير

وله من قصيدة يصف ضعفه في كبره من قطعة :

- ٥٤٨٩ -

فاعجب لضعف يدي من حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الاسد

وانشدني أيضا لنفسه :

لي مولى صحبته مذهب العم
ـ ر قلم يرع حرمتي وزمامي

ظنني ظله اصاحبه الده
ـ ر على غير نائل واحترام

فافترقنا كأنه كان طيفا
وكأني رأيته في المنام (٥٥)

وللامير مجد الدين مؤيد الدولة ابن منقذ في مدح الملك الناصر :

لهفي لشرخ شيببتي وزماني
وتروحي لفتوة وطعان

أيام لا أعطي الصبابة مقودي
أنفا ، ولا يثني الغرام عناني

وإذا اللواحي ، في تقحمي الوغى
لا في المدام ولا الهوى ، تلحاني

وإذا الكماة على يقين أنهم
يلقى الردى في الحرب من يلقاني

أعتدهم ، وهم الاسود ، فرائسي
فهم دريئة صارمي وسناني

- ٥٤٩٠ -

والأسد تلقى مثلها مني إذا
لاقيتها بقوة يد وجنان

كم قد حطمت الرمح في لباتها
فتركتها صرعى على الأذقان

حتى إذا السبعون قصر عشرها
خطوي ، وعاث الضعف في أركانها

أبليتني الأيام حتى كل عن
ضرب المهند ساعدي وبناني

هذا وكم للدهر عندي نكبة
في المال والأهلين والأوطان

نوب يروض بها إباي وقد عسا
عودي ، فما تثنيه كف الحاني

لا أستكين ولا ألين وقد بلا
فيما مضى صبري على الحدثان

فالآن يطمع في اهتضامي إنه
قد رام أمرا ليس في الامكان

والناصر الملك المتوج ناصري
وعلاه قد خطت كتاب أمانني

قد كنت أرهب صرف دهرني قبله
فأعاد صرف الدهر من أعواني

- ٥٤٩١ -

أنا جاره ويد الخطوب قصيرة
عن أن تتال مجاور السلطان

ملك يمن على أسارى سبيه
فيعيدهم في الأسر بالاحسان

خضعت له صيد الملوك فمن برى
أقلامه غرر على التيجان

ملأ القلوب محبة ومهابة
فخلت من البغضاء والشنآن

لي منه إكرام علوت به على
زهر النجوم ، ونائل أغناني

قرن الكرامة بالنوال مواليا
فعجزت عن إحصاء ما أولاني

فنداه أخلف ما مضى من ثروتي
وبقاؤه عن أسرتي أسلاني

فلاهبين إلى علاه مدائحا
تبقى على الأحقاب والأزمان

مدحا أفوق بها زهيرا مثلما
فاق الملك الناصر ابن سنان(٥٦)

ياناصر الاسلام حين تخاذلت
عنه الملوك ومظهر الايمان

- ٥٤٩٢ -

بك قد أعز الله حزب جذوده
وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشـ
ـيطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى ، لارغبة
في الملك بل في طاعة الرحمان

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا
بالسيف ما رفعوا من الصليبان

وغضبت لله الذي أعطاك فصـ
ـل الحكم غضبة تائر حران

فقتلت من صدق الوغى ، ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعدما
ضمرت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد
ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض
غضب ، ويصدر وهو أحمر قان

ويخوض نيران الوغى ، وكأنه
ظمآن خاض موارد الغدران

- ٥٤٩٣ -

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى :
ماذا أتى بالاسد من خفان
لو أنهم صدموا الجبال لزعزعا
أركانها بالبيض والخرسان

فهم الذخيرة للوقائع بالعدى
ولفتح ما استعصى من البلدان

أنت الذي علمتهم
.....فارس الفرسان

فاسلم مدى الايام يامن ما له
.....ثان(٥٧)

واسعد بشهر الله فهو مبشر
لعلاك بالتأييد والغفران

في دولة عمت بنائلها الورى
فدعا لها بالخلد كل لسان

وله في الهزل:

خلع الخليع عذاره في فسقه

حتى تهتك في بغى ولواط

يأتي ويؤتى ، ليس ينكر ذا ولا
هذا ، كذلك إبرة الخياط

وله :

يا عاتبين غتاب المستريب لنا
لا تسمعوا في الهوى ما تدعي التهم

من لي بأن بسيط الارض دونكم
طرس وأنبي في أرجائه قلم

أسعى إليكم على رأسي ويمنعني
إجلالي الحب أن يسعى بي القدم

وله قصيدة مشهورة كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها إلى مصر
في زمان بني الصوفي (٥٨) كتبها إلى الأمير أنر ، ويشير إلى بني
الصوفي ، أنشدنيها لنفسه وهي ذات تضمين (٥٩) :

ولوا ، ولما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولاسعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم

قلبت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا قصدهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا

حرمت ما كنت أرجو من وداهم
ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني ، منذ ملوني بأعينهم ،
قذى ، وذكرى في أذانهم صمم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
هواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ولا أبغي بهم بدلا
حسبي هم أنصفوا في الحكم أو ظلموا

اراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ أميري معين الدين مألقة
من نازح الدار لكن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

أنت أعدل من يشكى إليه ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

- ٥٤٩٦ -

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن المعارف في أهل النهى نهم

ولا أعتقد الذي بيني وبينك من
ود ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بعقبهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخرس يبعون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحو لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من معان في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أنفت حياء أو محافظة
من فعل ما أنكرته العرب والعجم

اسلمتنا ، وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السميري دم

- ٥٤٩٧ -

وكننت أحسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم

وأن جارك جار للأسموأل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله الذقم

وما طمان(٦٠) بأولى من أسامة بالـ
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنأ جنينا نذوبا لايكفرها
عذر ، فماذا جنى الأبطال والحرم

القيتهم في يد الافرنج متبعا
رضى على يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

إذا نهضت إلى المجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسم

حتى إذا ماانجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخدم

رشفت آخر عيش كله كدر
ووردهم من نذاك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش ، فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
ومرتع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ، ضاق به
نزع الرجال ، يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست آسي على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس فيه يدي .
ثم انتثت وهي صفر ماؤها ندم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من يؤسه نعم(٦١)

وأردت أن أورد من نثره ما يزهو فجره ، ويبهر سحره ، فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني(٦٢) إليه من مصر عند عوده إليها ، ونحن بدمشق سنة إحدى وسبعين ، وأثبت أولا الرسالة الفاضلية وهي أبيبة غريبة ، صنيعة بديعة ، جامعة للدرر ، لامية بالغرر ، وهي :

وصل كتاب الحضرة الشامية الاجلية ، المؤيدة الموفقة المكرمة ، مجد الدين ، قدوة المجاهدين ، شيخ الامراء ، أمين العلماء ، مؤيد الدولة ، عز الملة ، ذات الفضيلتين ، خالصة أمير المؤمنين ، لازالت رياض ثنائها متناوحة ، وخطرات الردى دونها متنازحة ، والبركات إلى جنابها متوالية ، والليالي بأنوار سعادتها متلالية ، والايام الجافية ، عن بقية الفضل بها متجافية ، وأحكامها الهافية ، تاركة للمجد فيها فئة تتحيز ، إليها المكرمات إذا لم يكن لها فية . فأذشده ضالة هوى كان لذندانها مرصدا ، ورفع له نارا موسوية سميع عندها الخطاب وأدس الخير ووجد الهدى ، وكانت نار الغليل ، في فؤاده بخلاف نار الخليل ، فإنها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون بردا وسلاما ، ولا ترى بمائها إلا أضرى ما كانت ضراما ، وشهد الله حوالة على علمه بما هو فيه ، لا إحالة بما يخالفه الضمير وينافيه ، لقد كان العبد ناكس الرأس خجلا ، غضيض الطرف حياء ، مقيد النظر إطرأقا ، حصر القول تشورا(٦٣) منه ، فارقها على تلك الصفة فلا هو قضى من حقها فرائض لزمته ، والله وتعينت ، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه أنسها أننت ، ولا مدت هذه الطيفية والسحابة الصيفية بالذوى المستأنفة ما اقتربت ، ولا الايام بالبعد ما أساءت فإنها بالقرب ما أحسنت .

- ٥٥٠٠ -

وإن امرءا يبقى على ذا فؤاده
ويخبر عنه ، إنه لصبور

ويعود إلى ذكر الكتاب الكريم ، وسجد لحرا به وسلم ، وحسب
سطوره ميا سم تبسم ، ووقف عليه وقوف الحب على الطلل يكلمه
ولا يتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى ودمعه وقد كان على صفحة
المحرم ، وجد له صبا به لا يصحبها أمل ، وخاف أن لا يدرك الهيجاء

حمل (٦٤) ، وقال الكتاب :
إنا محيوك فاسلم أيها الطلل (٦٥)

وعز ، والله ، عليه أن يدخل كاتبه القلوب ويخرج من القل ،
وأشد نيابة عنها :

وإن بلادا ما احتلت بي لعاطل
وإن زمانا ما وفى لي لخوان

وما يحسب العبد أن الملك يعجز عن واحد وهو بالورى مستقل ،
وإن السحاب يعرض عن ذكي الروض وهو على الفلا مستهل .

ولقد كتب في هذا المعنى بما يرجو أن لا يرجى ، وأنهى منه ما
اقتضى الصواب أن ينهى ، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة ، وبقية
من العمر مسيدة ، فإنها الآن نوح الأدب وطوفانها العلم الذي في
صدرها ، ولاغرو أن يبلغ عمره بعمرها ، على أن يتحقق خلودها في
الجنة بعملها ، وفي الدنيا بذكرها ، فإن الدارين يتغييران على عقائل
فخرها ، ولا يتغييران عن إجراءاتها على رفع قدرها ، وعلى أنها طالما
أقامت الحد على الدنيا السكرى حتى بلغت في حدها من العمر
الثمانين ، وأنتت الايام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من
قلمها تأنيب الجانين ، وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقت

إليها السلم فوضعت الحرب أوزارها ، ولا استقلت بآية موسى إلا
لتفجر بها أنوار الخواطر وتضرب بحارها ، وما هي إلا رمح وكفى
بيدها لها سنانا ، وما هي إلا جواد يجنب السنين خلفها فتكون
أناملها لها عنانا .

وعلى ذكر العصا فإن الكتاب المجموع فيها حسب أنه ثمانية
العصا ، واضيف إلى محاسنها التي لا تحصى أو يحصى الحصى .

وكان من مدة قد شاهد بحلب كتباً بخط المولى الولد دلت على
مضض ومرض ، ولعله الآن قد عوفي من الأمرين ، وقرت بوجهه
العين ، وجددت عهداً بنظرة ، وقرت عليها لسانه إسناد خبره ،
وبلت غلة الحائم ، ورأت منه هلال الصائم ، وطالعتها وجه الزمان
المغضب منه بصفحة المباسم ، وفي مواعيد الانس منه الضامن
الغارم ، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد ، ويستثمر
الوفاء من غرس ذلك العهد ، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم
موقع الطوق من الحمام يتقلد فلا يخلع ، ويعجبها فلا تزال تسجع ،
يجليه طوقاً على الأسى إلا أنه بدر الدمع مرصع ، ولا يمنعه منه شعار
السرور أن يحزن لفرقتها ويجزع ، فإذا أنعم به فمع ثقة ويخشى أن
يكون هذا الشرط له قاطعاً ، بل مع من اتفق فأنه كالمسك لا يدعه
العرف الضائع أن يكون ضائعاً :

أكتبه تكتب لي أماناً ماضياً
وابعثه تبعث لي زماناً راجعاً

إن اشتريه بمهجتي فقليلة
فاسمع به ، فمتى عرفتك مانعاً

وجواب مؤيد الدولة ، وقرأته عليه فسمعه :

- ٥٥٠٢ -

وصل الكتاب أنا الفداء لفكرة
نظمت نفيس الدر فيه أسطرا
وفضضته عن جونة فتأرصت
نفحاته مسكا وفاحت عنبرا
وأعدت فيه تأملي متحيرا
كيف استحال اللفظ فيه جوهر

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلي الاوحد الصدر الفاضل ،
فضله الله برفع درجاته في الجنان ، كما فضله بمعجز البلاغة
والبيان ، وبلغه من الخيرات أمله ، وختم بالحسنى عمله ، وجمل
ببقائه الدنيا ، وأجزل حظه من رحمته في الاخرى ، بسلام يغاويه
نشره ويرأوه ، ودعاء لا يحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق
عن حصر فضائله منادحه ، وما عسى أن يقول مطريه ومادحه ،
والفضل نغمة من بحر الزاخر ، وقطرة من سحابة الماطر ، تفرد به
فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الأخير ، فتق عن
البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة
كادت أن تتلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدهمت عليها العقول
والاسماع ، ووقع على الاقرار بإعجازها الاتفاق والاجماع ،
فسبحان من فضله بالبلاغة على الانام ، وذلل له بديع كلام ما كانه
من الكلام ، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام ، وتحار في إدراك لطف
معانيه الاوهام ، هو سحر لكنه حلال ، ودر إلا أن بحره حلو
سلسال .

ولا يظن ، أدام الله ببقائه جمال الزمان وأهله ، ويسر له إظهار
مكتوم فضله ، أن الخادم يسلك سبيل النفاق في مقاله ، ولا إعارة
شهادة في وصف كماله ، لا والله
ما ذلك مذهب ، ولا هو مراد المجلس العالي ولا أربه ، ولكنها
شهادة ولا يحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا
أن الخادم قد بقي فيه أثر من اقدام الشباب ، لأحجم عن اصدار

كتاب أو رد جواب ، لكنه على ثقة من كريم مساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ، ويقين أن فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب عن ذكر ما عنده من الشوق الى كريم رؤيته ، والودشة بمحبوب خدمته ، ويقتصر على ما قاله زهير :

ان تمس دارهم مني (٦٦) مباحة
فما الأحبة الا هم وأن بعدوا

فأما ما أنعم به من ذكر الخادم في مطالعته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليه السلام في مناجاته ، ولا سواء ، موسى ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف اياديه ، مقابلة بالاعتراف بالمنة السامية ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وان كان لا يزال على ذكر الانعام المتوالي ، تقريب مالك رقه واكرامه قد شرفاه ، وانعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه ، ان سألته أجاب سؤاله ، بما يحقق رجاءه وأماله وان أمسك عن غني فضله بفضله ، فاجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشریف مالك رقه ذو تاج وسرير ، ومن غزير انعامه في روضة وغدير ، وذلك ببركات المجلس العالي ويمن نقيبته ، وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، لكن يشوب ما هو فيه من إنعام لم تبلغه أمانيه أسف قد أقض لين مهاده ، وسالك من القلب حبة سواده ، على زاهب عمره ، وقوة اسره ، واذا لم يكن أبلاههما في خدمة مالك رقه ، وبذل رأسه بين يديه ابانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى من الخدم في المهم ، بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبل من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعائمه ، بمحمد وآله

فأما ما أنعم به من ذكر اصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقبييل قدمه ، والخادم يقول ما قاله أبو الفتیان ابن حيوس عن خدمة أبوه الحسن رحمه الله لحمود بن صالح .

- ٥٥٠٤ -

على أنه ، لافل غرب لسانه
مدى الدهر يحتاج مني مترجما (٦٧)

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام ، وجزيل الانعام .
وأما ماتطول به من ذكر كتاب « العصا » وشرفه ، حتى تروهم
انه أحسن فيما صنفه ، وعند وصوله من بيار بكر ، لايلقى عصا
تسياره الا بمصر ، يقتفي اثر عصا الكلیم ، الى جنبه الكريم ، الا
أنه آية اقراره بالربوبية لفضله وافضاله ، ساجد سجود السحرة
لتعظيمه واجلاله ، يتلقف من انعامه حسن التجاوز عن
نقصه ، ويعوذ بكرمه من منافثة علمه وفحصه ، وتشريف الخادم
ولو بسطر واحد عند خلو البال . والفزع من مهم
الاشتغال ، يرفع من قدره ، ويوجده أنه بالمكان المكين من حسن
ذكره ورأيه ، وأدام الله ايامه في ذلك أعلى ان شاء الله تعالى .

وكتب الي وقد رحلنا من دمشق في خدمة الملك الناصر الى حلب في
شوال سنة احدى وسبعين :

عماد الدين أنت لكل داع
دعاك لعونه خير العما
تقوم لنصره كرما اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد
قضى لك بالعلی كرم السجایا
وماؤتيت من كرم الولاد
أبئك وحشتي لك واشتياقي
اليك ومالقيت من البعاد
واني في دمشق ، ومن حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد
ومثلك ان تطلبه خير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

- ٥٥٠٥ -

أنار بك الزمان فلا علتة
لفقد علاك أثواب الحداد
وكتب الي ايضا في ابتداء مكاتبه :

يا عمادي حين لامعتمد
وصدى صوتي في الخطب الملم
والذي بواني من رأيه
في أعالي ذروة الطود الأشم
منذ فارقتك أنسي نافر
وسنا صبحي كليل مدلهم
فالي من اشتكى شيئا اذا
غاب عني مشتكي طارق غمي
واذا كنت معافي سالما
في اعتلاء وسعود هان همي

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء :

ويوميء بالتحية من بعيد
كما يومي بأصبعه الغريق

وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهى رؤيته ، والوحشة
لخدمته ، ما يعجز الأقلام شرحه ، ويحرق الطرس لفحه ، وهو
ينحرف من مقام الاشتكاء ، الى مقام الدعاء ، ويرغب الى الله أن
يكلاه بحفظه في سفره ومقامه ، ويجزل حظه من فضله وانعامه .

ووصلت منه مكاتبة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة
اثنيتين وسبعين فقال لي القاضي الفاضل : خذها وأورد بها في
الخريفة والجريفة وهي :

لازلت ياملك الاسلام في نعم
قرينها المسعدان : النصر والظفر
تردي الاعادي وتستصفي ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت اسكندر الدنيا ، بذورك قد
تضائل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد
أظله المهرمان : الشيب والكبر
وجاد غيث نذاك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدر والبدر
وسرت سيرة عدل في الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسور
ففق بنصر على الكفار انهم
يربيهم المهلكان : الغدر والأشر
ثناهم اذ رأوا اقبال ملكهم
اليهم المزعجان : الخوف والحذر
وماالفرار بمنجيهم ، وخلفهم
من بأسه المدركان : السمر والبتير
وسوف يعفو غدا منهم بصارمه
وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى ثهلان اسلمهم
لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
قضى بتفضيله عمن تقدمه
مااستودع المخبران : الكتب والسير
عدل به أمن الشاء المهمل أن
يروعه الضاريان : الذئب والنمر
وجود كف اذا انهلت تفرق في
تيارها الزاخران : البحر والمطر
مكارم جمعت فيه ، توافق في
تفضيلها الأكرمان : الخير والخير

- ٥٥٠٧ -

فأسلم وعش وأبق للأسم ماجرت الـ
أفلاك والنيران : الشمس والقمر
بنجوة من صروف الدهر يقصر عن
منالها المفسدان : الخطب والغير

المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمان ، فما هو الذي
كان ، وأوهب الأيام ما أبقت من يسير قوته ، واسترجعت ما أعارته
من ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من
كل باب ، فهو في زاوية المنزل ، عن كلمات الناس فيه بمعزل ، فهو
كما قال :

أنا في أهل دمشق ، وهم
عدد الرمل ، وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت
بيننا الألفة أسباب الوداد
يحسبونني ان رأوني وأفدا
قد اتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي ، والهوى
أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وقد سألتني أن أنتجز له مطلوباً عند الملك الناصر فكتب الي
يستحدثني :

عماد الدين ، مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الأمانى
ولو كلفنه رد الشباب
وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه ، فما عذر الجواب (٦٨)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد
(من معجم الأدباء لياقوت)

ابن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار
ابن زياد بن زغيب ، بن مكحول بن عمر بن الحارث بن عامر بن
مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات
ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن
قضاة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ
ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، هكذا ذكره ونسبه ، وفيه
اختلاف يسير عند ابن الكلبي ويكنى أسامة أبا المظفر ، ويقاب مؤيد
الدولة مجد الدين ، وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة
اشعرهم واشهرهم ، وأنا اذكر لكل واحد من أهله في ترجمته ما يليق
ولا أفرقهم ، ذكره عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد
الأصفهاني في كتاب خريدة القصر ، وجريدة العصر وأثنى عليه
كثيرا ، فقال : ما زال بنو منقذ هؤلاء مالكي شيزر ، وهي حصن
قريب من حماة معتصمين بحصانيتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت
الزلزلة في سنة نيف وخمسين ، فخربت حصنها ، وأذهب
حسنها ، وتملكها نور الدين محمود بن زنكي عليهم ، وأعاد بناءها
فدشعوا شعبا ، وتفرقوا أيدي سبأ .

قال ابن عساكر : ذكر لي أسامة أنه ولد سنة ثمان وثمانين
وأربع مائة وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومات
أسامة في ثالث عشرين رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ودفن
بجبل قاسيون .

قال العماد وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه
أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، حلوا المجالسة
حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء
النباهة ، معتدل التصاريح مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق
الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبوا والدار
بالكريم ، فانتقل الى مصر ، فبقي بها مؤمرا مشارا اليه
بالتعظيم ، الى أيام ابن رزيق ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق
مخصوصا بالاكرام حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرف

الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا ، مقيما بها في ولده ، مؤثرا لها على بلده ، حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة سبعين وخمسمائة ولم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا باشاعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه .

قال مؤلف هذا الكتاب : وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر عند كوني بها في سنتي إحدى عشرة وستمائة ، واثنى عشرة وستمائة واندشني شيئا من شعره وشعر والده .

قال : فاستدعاه الى دمشق - يعني مؤيد الدولة - وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال : واندشني العامري من شعره بأصبهان وكنت أتمنى لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين بدمشق ، وسألته عن مولده ، فقال ولدت في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة واندشني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه .

وصاحب لأمل الدهر صحبته

يشقى لذفعي سعي مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا

لناظري افترقنا فرقة الأبد

واندشني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الأربعون عن الصبي

وأخو المشيب يحور ثمة يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدلّه

صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عدت سني ثم نقصنا

زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

- ٥٥١٢ -

قلت أنا هذا كلام نفيس ، ومعنى لطيف ، ولكنه أخذ معنى البيت الثاني من قول ابن الرومي :

كفي بسراج الشيب في الرأس هاديا
الى من اضلته المنايا لياليا
فكان كرامي الليل يرمي فلا يرى
فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا

وأخذ معنى البيت الأخير من قول أبي فراس بن حمدان في مزدوجته

ما العمر ما طالت به الدهور
العمر ماتم به السرور
أيام عزي ونفاذ أمري
هي التي احسبها من عمري
لو شئت مما قد قللن جدا
عدت أيام السرور عدا

ولكن قول اسامة أبلغ في المعنى وهذا ظاهر ، قال وأنشدني من قديم شعره

لم يبق لي في هواكم أرب
سلاوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تشعب
الام دعمي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبني ال
حب فقد اعتقتني الريب

- ٥٥١٣ -

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ما حسبوا

وقوله ايضا :

يادهر مالك لا يصد
ك عن مساءتي العتاب
امرضت من أهوى وياً
بي ان امرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الذواب
اخذ هذا المعنى من قول الشاعر
ياليت علتة لي غير أن له
أجر المريض وأني غير مأجور

قال العماد : وهذا الذي أوردته من شعره نقلته من تاريخ
السمعاني ، فلما وردت الى دمشق واجتمعت به قلت له هل لك معنى
مبتكر في الشيب فأندشني :

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
أرضيته وتركت خدي شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا
وأبيه ما ظلم المشيب فإنه
أملني فقلت عساه عني راغبا
أنا كالدجى لما تنهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا

- ٥٥١٤ -

ومن شعره ايضا في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما
حبست لميزتها على الانداد
وتهيبوك وانت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغمار
ما الحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للآساد

ومنه قوله في الشمعة :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهر للـ
رائين نورا وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه ببخيل الغم منفطر

وقوله ايضا :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

وقوله ايضا :

لئن غض دهر من جماعي أو ثنى
عناني أو زلت باخمصي النعل
تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنه في الصدر ابرزها الجهل

- ٥٥١٥ -

وهل أنا الا السيف قلل حده
قراع الأعادي ثم أرففه الصقل

وقوله ايضا :

لاتحسن على البقاء معمرًا
فالموت ايسر مايؤول اليه
واذا دعوت بطول عمر لأمرىء
فاعلم بأنك قد دعوت عليه

قال العماد : وتناشدنا بيتا للوزير المغربي في وصف خفقان
القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن انكاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال لي الأمير مؤيد الدولة أسامة : فقد شبهت القلب
الخافق ، وبالغت في تشبيهه ، وأرييت عليه في قولي من أبيات
وهي :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
عن المهامه والقيافي الفيح
ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح
وكان قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له : صدقت فان المغربي قصد تشبيهه خفقان القلب وانت
شبهت القلب الراجب باللهيب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه

- ٥٥١٦ -

لتعاور الريح فقد أريبت عليه ، وأذشني أيضا من قـوله ايام
شبابه ، وهو معتقل ، في الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بوبنا مرتاب
نفسى فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب
ودي كعهدك والديار قريبة
من قيل ان تتقطع الاسباب
ثبت فلا طول الزيارة ناقص
منه وليس يزيده الاغباب
حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب
قال : وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
القيت ثم خيالا مذك منتظري

وأبلغ من هذا قول المعري في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من أمد المدى المتطاوول
وعذرت طيفك في الجفاء فانه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

وأنشدني :

وأعجب ما أقيت من الليالي
وأي فعالها بي لم يسؤني
تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضمنت عليه جفني

قال : واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب
بدمشق ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال الأمير أسامة إلا أنشدك
البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات ، فأنشدني
لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكبح الدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها وما فيها

وأنشدني لنفسه في غرض له في ذور الدين محمود رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات مذكمش
أيامه مثل شهر الصوم خالية
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال وأنشدني لنفسه :

أحبابنا هلا سبقتهم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

- ٥٥١٨ -

تشاغلتم بالهجر والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقا
كأنا أخذنا من صروف زماننا
أمانا ومن جور الحوادث موثقا

وقال ايضا :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا
وتلهبت خجلا فلولاً ماؤها
مترقرا فيه لصار حريقا
وأزور عني مطرقا فاضلني
ان اهتدي نحو السلو طريقا
فليلحني من شاء فيه فصبوتي
بهواه سكر لست منه مفيقا

وكتب اليه ابنه ابو الفوارس مرهف الى حصن كيفا فكتب اسامة
جوابه :

أبا الفوارس ملاقيت من زمني
أشد من قبضة كفي عن الجود
رأى سماحي بمنزور تجاذف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي
فصرت ان هزني جان تعود ان
يجني نداي رأني يابس العود

وقال ايضا :

سقوف الدور في خربت سود
كستها النار اثواب الحداد

- ٥٥١٩ -

فلا تعجب اذا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد
بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور الا في السواد
ونور الشيب مكروه وتهوى
سواد الشعر اصناف العباد
وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وله في مدح صلاح الدين :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بالغياهب

وله في الهزل :

خلع الخليع عذاره في فسقه
حتى تهتك في بغا ولواط
يأتي ويؤتى ليس يذكر ذا ولا
هذا كذلك ابرة الخياط

قال العماد : وكان قد سألتني أن انتجز له مطلوبا عند الملك
الناصر صلاح الدين ، فكتب الي يستدثني :

عماد الدين مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الاماني
ولو كلفته رد الشباب

- ٥٥٢٠ -

وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه فما عذر الجواب

ولؤيد الدولة بن مذكذ تصانيف حسان منها كتاب العصا ، كتاب
الشيب والشباب ألفه لآبيه ، كتاب نيل يتيمة الدهر للثعالبي ، كتاب
تاريخ ايامه ، كتاب في أخبار أهله رأيته .

ومن شعر الأمير الأجل مؤيد الدولة مجد الدين اسامة بن مذكذ :

صديق لنا كالبحر قد أهلك الورى
ولم ينههم أخطاره عن ركوبه
موداته تحكيه صفوا وخبرها
كمشربه من حوبه ونذوبه

ومنه ايضا :

كنت بين الرجاء واليأس منه
اقطع الدهر بين سلم وحرب
التقي عتبه بأكرم اعتا
ب ويلتقى ذلي بتيه وعجب
فبدا للملوك أني لورم
ت سلوا لما سلا عنه قلبي
فتجني لي النذوب ولا والـ
له مالي ننب سوى فرط حبي

ومنه ايضا :

انظر بعينك هل ترى
أحدا يدوم على الموه

- ٥٥٢١ -

لترى اخلاء الصفا
ء عدى اذا تأتيتك شدة

ومنه ايضا :

تذكرني الاخوان حتى ثقلتهم
وحذرنى منهم نذير التجارب
كأنى اذا اودعت سري عندهم
رفعت بنار فوق أعلى المراقب

قال العماد : وكتبها الى دمشق بعد خروجه الى مصر في ايام
بني الصوفي يشير اليهم :

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
قليتهم حكموا فينا بما علموا
مامر يوما بفكري مايريبهم
ولاسعت بي الى ماساءهم قدم
ولااضعت لهم عهدا ولااطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى وذكرى في أذانهم صمم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي ولابغي بهم بدلا
حسبي بهم انصفوا في الحكم أم ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

- ٥٥٢٢ -

بلغ اميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن وده أمم
هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقي بعد ماشهدت
به النصيحة واذا شيدته هدموا
وأن عرتك من الايام نائبة
فكلهم للذي يبكيك يبتسم
وكل ماملت عنه قربه ومن
والاك فهو الذي يقص ويهتضم
اين الحمية والذفس الابية اذ
ساموك خطة خسف عارها يصم
هلا اذفت حياء أو محافظة
من فعل ما انكرته العرب والعجم
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم
وكننت احسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم
وأن جارك جار للسموعل لا
يخشى الاعادي ولا تغتاله الذقم
هبننا جنينا نذوبا لا يكفرها
عذر فماذا جنى الاطفال والحرم

ومنها :

لكن رأيك انناهم وأبعثني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم
ولا سخطت بعادي اذ رضيت به
ولالجرح اذا ارضاكم ألم

- ٥٥٢٣ -

تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انتنت وهي صفر ملؤها ندم
فراقك أساني وأسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم
فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكلما نالني من يؤسه نعم

ومن شعره ايضا :

الو الخطوب اذا طرق
من بقلب محتسب صبور
فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور
فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير

وتوفي بعد الثمانين وخمسمائة .
ومنهم أخوه أبو الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد بن مذقذ
سيد بني مذقذ ، ورد بغداد حاجا بعد العشرين وخمسمائة ، وقد
ذكره السمعاني في تاريخه وأنشد له :

ودعت صبري ودمعي يوم فرقكم
وما علمت بأن الدمع ينخر
وضل قلبي من صدري فعدت بلا
قلب فياويح ما آتي وما أذر
ولو علمت نخرت الصبر مبتغيا
اطفاء نار بقلبي منك تستعر

قال الأمير علي بن مرشد سمعت دربابا يصيح بدرب حبيب
(٦٩) فقلت فيه :

- ٥٥٢٤ -

يا طائرا لعبت أيدي الفراق به
مثلي فاصبح ذا هم وذا حزن
داني الاسبى نازح الاوطان مغتربا
عن الاحبة مصفودا عن الوطن
بلا نديم ولا جار يسر به
ولا حميم ولا دار ولا سكن
لكن نطقت فزال الهم عنك ولي
هم يقلقل احشائي ويخرسني
وكل من باح بالشكوى استراح ومن
أخفى الجوى بث عنه شاهد البدن
ارقت عيني بذوح لست افهمه
مع ما بقلبي من وجد يؤرقني
وما بكيت ولي دمع غواربه
اذا ارتمت منه لم تدشوق بالسفن

قال : وكتب الى صديق له :

ما فهمت مع متحدث متشاغلا
الا رأيك خاطرا في خاطري
ولو استطعت لزرت ارضك ماشيا
بسواد قلبي او باسود ناظري

وكتب الى اخيه مؤيد الدولة أسامة وهو بالموصل :

الا هل لمحزون تذكر الله
فحن وأبدى وجهه من يعينه
وعيشا مضى بالرغم ان نحن جيرة
ترف على روض الوصال غصونه
لدى منزل كان السرور قرينكم
به فتولى إذ تولى قرينه

فلو أعشبت من فيض دمعي محوله
لما رضيت عن دمع عيني جفونه

قال واذنبتني له ابن اخيه الامير مرهف بن اسامة

لاشكرن الذوى والعيس اذ قصدت
بي معنن الجود والاحسان والكرم
فسرت في وطني اذ سرت من وطني
فمن رأى صحة جاءت من السقم
وقد ندمت على عمر مضى اسفا
اذ لم اكن لك جاراً فيه في القدم
فاسلم ولازلت محروس العلا ابدا
مالاحت الشهب في داج من الظلم

وقال اخوه اسامة بن مرشد : ونقلت من خط أخي عز الدولة أبي
الحسن علي بن مرشد من شعره ، وكان استشهد رحمه الله على
غزة في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة في حرب الفرنج
لعنهم الله ، قبل ان يكمل من شعره وكان تقنطر به فرسه على باب
غزة ، واستعلى الفرنج على أصحابه فانكشفوا عنه ، فقتل وبقي في
المعركة واذشد له أشعارا منها قوله في مرض طال به :

ظننت وظن الألمي مصدق
بأن سقام المرء سجن حمامه
فان لم يكن موت صريح فانه
عذاب تمل النفس طول مقامه
وكم يلبث المسجون في قبضة الأذى
يجرب فيه الموت غرب حسامه

واذشد له قوله عند رحيله عن بغداد الى الحجاز :

- ٥٥٢٦ -

ترحلت عن بغداد لاكارها لها
وفي القلب منها لوعة وحريق
فسقيا لا يام تقضيت بربعها
إذا العيش غص والزمان انيق
باخوان صدق ليس فيهم مشاقق
وكلهم حان علي شفيع

وأنشد له ايضا

ولما أعارتني الذوى منك نظرة
أحب الى قلبي من البارد العذب
تعقبها اليبين الماشت فليتنا
بقينا على تأميلنا لذة القرب

وأنشد له :

ليت شعري علام صدك عنا
بعد ماكنت تدعي الاشواقا
لاتجار الزمان سبقا الى الهج
- فما زال صرفه سباقا
أنت غر بغدره فلهذا
قد تعجلت بالصدود الفراقا

وأنشد له :

بني أبي أن عدا دهر ففرقنا
فهم نفسي بكم ماعشت مجتمع
هل تعلمون الذي في النفوس من أسف
عليكم وحنين ليس ينقطع

نزحتم أدمعي حتى لقد محلت
جفون عيني ومات اليأس والطمع
وان دهر رمي عن جيده دررا
امثالكم لزمان عاطل ضرع

ومنهم جده سيد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن منقذ ، وكان من شرطه أن يقدم على بنيهِ ، قال : هو جد الجماعة ، موفور الطاعة ، أحكم أساس مجده وشادها ، وفضل أمراء نيار بكر والشام وسادها ، وقال أبو يعلى حمزة بن أسد : في سنة أربع وسبعين وأربعمائة في رجب ملك الأمير أبو الحسن علي بن المقلد بن منقذ حصن شيزر ، من الاسقف الذي كان فيه بمال بذله له ، وأرغبه فيه الى أن حصل في يده ، وشرع في عمارته وتحصينه والمصافعة عنه الى أن تمكنت حاله فيه ، وقويت نفسه في حمايته والمدافعة (٧٠) عنه .

والأمير سيد الملك ، هو ممدوح فحول الشعراء ، والذي امتنحه ابن حيوس بقصيدته التي أولها - وكتبها اليه من طرابلس وهو بحلب :

أما الفراق فقد عاصيته فأبى
وطالت الحرب الا أنه غلبا
أراني البين لما حم عن قدر
وداعنا كل جد بعده لعبا (٧١)

قال : وسألت ابن ابنه الأمير اسامة بن مرشد بن علي عن وفاة جده فقال : مات سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

قال : وأنشدني مجد العرب العامري بأصبهان قال : أنشدني الأمير أبو سلامة مرشد لابيهِ الأمير أبي الحسن علي بن مقلد في غلام له ضربه ، وقد أبدع في هذا المعنى وأغرب :

- ٥٥٢٨ -

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفي غلها غيظا الى عذقي
واستعبر اذا عاينته حذقا
وأين ذل الهوى من عزة الحذق
قال وأنشدني له ايضا :

ماذا النجيع بوجنتيك وليس من
شرط الأنوف على الخدود رعا
الحاظنا جرحتك حين تعرضت
لك أم أليكم جواهر شفاف

وقرات له في مجموع :

اذا ذكرت أياديك التي سلفت
مع سوء فعلى وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني
علمي بأنك مجبول على الكرم

وله ايضا :

ومن كان يرضى بذل في ولايته
من خوف عزل فاني است بالراضي
قالوا فتوكب أحيانا فقلت لهم
تحت الصليب (٧٢) ولا في موضع القاضي

وله ايضا :

ولا تعجلوا بالهجر ان الذوى
تحمل عنك منة الهجر

- ٥٥٢٩ -

وظاهرونا بوفاة فقد
اغناكم اليبين عن الهجر

وله ايضا :

القي المنية في درعين قد نسجا
من المنية لامن نسج داوود

ان الذي صور الاشياء صورني
نارا من البأس في بحر من الجود

وهذان البيتان يرويان لعبد المؤمن ملك المغرب ، واسيد الملك من
مجموع اسامة :

كيف السلو وحب من هو قاتلي
أبنى الي من الوريد الأقرب
اني لأعمل فكرتي في سلوة
عنه فيظهر في ذل المنذب

وله ايضا :

بكرت تنتظر شيبتي
وثيابي يوم عيد
ثم قالت لي بهزاء
ياخليعا في جديد
لاتغالظني فمات-
صلح الا للصدود

قال العماد اشدت هذه الأبيات والقطع جميعها الأمير مؤيد
الدولة اسامة في سنة اثنتين وسبعين : فأذكر أن يكون لجهه سوى
البيتين اللذين أولهما :

- ٥٥٣٠ -

لاتعجلوا بالهجر ان الذوى
وأندشني لجده وكان كتب بها الى القاضي جلال الملك أبي الحسن
علي بن عمار صاحب طرابلس :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة مالاقيت في ظعني
لأصبح البحر من أنفاسكم ييسا
كالبر من أدمعي يندشق بالسفن

ومنهم الأمير أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ
والد أسامة ، وولد المقدم ذكره ، له البيت القويم والفضل العميم من
فروع الأملاك الفارعي الافلاك .

قال السمعاني في تاريخه : رأيت مصدفا بخطه كتبه بماء الذهب
على الطاق الصوري ، مارأيت ولاأظن ان الرائيين رأوا مثله ، فقد
جمع الى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تدبيره على
رهبته ، واسن وعمر ، وله أولاد نجباء أمجاد كرماء أجواد. وكان
مولده سنة ستين وأربعمئة ، ومات بشيزر سنة إحدى وثلاثين
وخمسمئة فيما حكاه ولده أسامة للسمعاني ، وذكره مجد العرب
أبو فراس العامري ، وقال : كنت مقيما مدة بشيزر في
كذفهم ، حاظيا برفدهم ، ساميا بشرفهم ، وأثنى على خلفهم
وترحم على سلفهم ، فقال : وكان الأمير حينئذ بقلعة شيزر أخوه
أبو العساكر سلطان ، وهو ممدوحى الذي حباني الأكرام
والاحسان ، والأمير مرشد يقربني ويكرمني ، وقال في أبياتنا
منها :

لئن نسي امرؤ عهدا فاني
لعهد أبي الفوارس غير ناس
وما عاش الأمير أبو فراس
فما مات الأمير أبو فراس

- ٥٥٣١ -

كنية العامري أبو فراس ، وأبو فراس الآخر هو أبو فراس بن حمدان ، وكان العامري يتبجح بالبيتين .

وذكر السمعاني في تاريخه : أنشدني ولده أبو عبد الله محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن مذقذ من حفظه ، عند القبة قال : وأنا قائم أكتب ، وهو وغلماؤه على الخيل ، قال : أنشدني والذي مرشد ابن علي لنفسه بشيزر :

ظلوم أبت في الظلم الا التمايا
وفي الصد والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا والذنب في ذاك ننبها
فيا عجباً من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى العلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولاناسي ما استودعت من عهودها
وان هي ابدت جفوة وتناسيا
ومنها في العتاب :

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ فيهم عهدتي وذيمايا
ويجزئهم مالم اكلفه فعله
لنفسى فقد أعدته من تراثيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته
ارى اليأس قد غطى سبيل رجائيا
فما لك لما إن حنى الدهر سعدتي
وثلّم مني صارما كان ماضيا

- ٥٥٣٢ -

تذكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتناسيا
على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي الشؤون ودائيا
فلا زعزعتك الحادثات فأنني
أراك يميني والأنام شماليا

قال وقرأت في بعض الكتب كلمة نظمها الخطيب أبو الفضل يحيى
ابن سلامة الحصكفي ، في جواب رسالة وصلته من الأمير علي بن
مرشد من شيزر وهي :

حوى مرشد وابناه غر المناقب
وحلوا من العلياء أعلى المراتب
ذوائب مجد ما علمت بأنهم
من العلم أيضا في الذرى والذوائب
انت من علي روضة جاد روضها
سحائب فضل لا كجود السحائب
بأبيات شعر أفحمت كل شاعر
وأيات نثر أعجبت كل خاطب
وغر معان أعجزت كل عالم
واسطر خط أرعشت كل كاتب
ربيع بورد وافد لمطالع
وربع لوفد وارد بمطالب
وخود رمت بالسحر عن قوس حاجب
لها في العلى فخر على قوس حاجب (٧٣)
قلو قطبت لما قطبت لها
وجوه لا غطت على حكم شارب .

ومنهم حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ
ابن نصر بن هاشم ، أبو الغنائم ، الملقب بمكين الدولة ، ولد

- ٥٥٣٣ -

بشيزر في تاسع جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين
وأربعمائة ، ونشأ بها ، وانتقل الى دمشق ، فسكنها مدة
طويلة ، واكتب في العسكر ، وكان يحفظ القرآن ، وله شعر
جيد ، وفيه شجاعة وعفاف ، ومات في نصف شعبان سنة أربع
ستين وخمسمائة بحلب. ومن شعره :

ما بعد جلق للمرتاد منزلة
ولا كسكانها في الارض سكان
فكلها لجال الطرف منتزه
وكلهم لصروف الدهر اقتران
وهم وأن بعدوا عني بنسبتهم
إذا بلوتهم بالود اخوان

وقال في أخيه يحيى :

بالشام لي حدث وجدت بفقهه
وجدا يكاد القلب منه يذوب
فيه من البأس المهيّب صواعق
تخشى ومن ماء السماء قلب
فارقت حتى حسن صبري بعده
وهجرت حتى النوم وهو حبيب

قال الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله ، وأنشدنا لنفسه :

يذكرني بحبي الرماح شوارعا
وبيض المواضي جردت للوقائع
وأقسم مارؤياه في العين بهجة
بأحسن من أوصافه في المسامع

قال وأنشد لنفسه :

- ٥٥٣٤ -

وسلافة ازرى احمرار شعاعها
بالورد والوجنات والياقوت

جاءت مع الساقى تنير بكأسها
فكأنها اللاهوت فى الناسوت (٧٤)
قال وأنشدنا لذفسه فى صديق له يعاتبه

أذنو بؤدى وحظى منك يبعنى
هذا لعمرى عين الغبن والغبن
وان توخيتنى يوما بلائمة
ورجعت باللوم ابقاء على الزمن
وحسن ظنى موقوف عليك فهل
غيرت بالظن بى عن رأيك الحسن

ومنهم الأمير شرف الدين أبو الفضل اسماعيل بن أبي العساكر
سلطان بن علي بن منذر ، كان أبوه عم مؤيد الدولة أسامة بن مرشد
أمير شيزر ، وكان شابا فاضلا ، سكن لما أخذت منهم شيزر
بدمشق ، ومات بها سنة احدى وستين وخمسمائة .

قال العماد وسمعت من شعره :

ومهفوف كتب الجمال بخده
سطرا يحير ناظر المتأمل
بالغت فى استخراجه فوجدته
لأراى الا رأى أهل الموصل

وذكره ابن عمه الأمير مرهف بن أسامة ، وأثنى عليه وأنشدني
له اشعارا منها بيتان فى النحل والزنبور وهما :

- ٥٥٣٥ -

ومغربين ترنما في مجلس
فنفاهما لانهما الاقوام
هذا يجود بما يجود بعكسه
هذا فيحمد ذا فذاك يذام

يعني العسل من النحل وعكسه الاسع من الزنبور ، وأذشيني
ايضا له :

سقيت وكأس الهوى علا على نهل
فلا تزني كاس اللوم والعذل
نأى الحبيب فبي من نأيه حرق
لو لامست جبلا هدت قوى الجبل
ولو تطلبت سلوانا لزدت هوى
وقد يزيد رسوبا نهضة الوحل
عفت رسومي فجع نحوي لتندي
فالصب غب زيال الحب كالطلال
صحوت من قهوة تنفي الهموم بها
لكنني ثمل من طرفه الثمل
أصبر النفس عنه وهي قاذلة
مالي بعافية الأشواق من قبل
كم ميتة وحياة ذقت طعمهما
مذ ذقت طعم الذوى لليأس والأمل
والنفس إن خاطرت في غمر وألت
منها وأن خاطرت في الوجد لم تنل
لها دروع تقيها من سهام يد
فهل دروع تقيها اسهم المقل
فانظر اليه تر الاقمار في قمر
وانظر الي تر العشاق في رجل

- ٥٥٣٦ -

بأي امر سانجو من هوى رشأ
في جفنه سحر هاروت وسيف علي
إذا رمى طرفه باللحظ قال له
قلبي أعد لارماك الله بالشلل
أمن بني الروم ذا الرامي الذي فتكت
سهامه بالورى أم من بني ثعل
إن خفت روعة هجران الحبيب فقد
أمنت في حبه من روعة العذل

ومنهم الأمير أبو الفتح يحيى بن سلطان بن منذر لقبه فخر الدولة
ذكره الأمير مرهف بن أسامة وذكر انه قتل على بعلبك في سنة
أربعين وخمسمائة * وأندشني من شعره ما كتبه الى ابيه عز الدين
يطلب منه رمحا :

يا خير قوم لم يزل مجدهم
في صفحات الدهر مسطورا
عبدك يبغي اسمرا ذكره
مازال بين الناس مذكورا
مسدد والجور من شأنه
أن نال وترا صار مورتورا
فان تفضلت به عاد عن
صدور اعدائك مكسورا

ومنهم الأمير عز الدولة ابو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر
ابن منذر عم مؤيد الدولة أسامة

قال العماد ، كنا حضرنا عند الملك الناصر ليلة بدمشق سنة
احدى وسبعين والأمير مؤيد الدولة حاضر ، وتناشدنا ملح
القصائد ، وندشنا ضالة الفوائد ، وجرى حديث اقتضى انشاد
الأمير أسامة بيتين لبعضهم في المشط الأسود ، والمشط

- ٥٥٣٧ -

الابيض ، وهما لابي الحسن احمد بن محمد بن الدويده
المغربي ، كان في زمن بني صالح .

كنت استعمل السواد ، من الامـ
شاط والشعر في سواد اللياجي
اتلقى مثلاث بمثل فلما
صار عاجا سرحته بالعاج

ثم قال الامير ، وقد أخذ هذا المعنى عمي نصر وعكسه وقال :

كنت استعمل البياض من الامـ
شاط عجا بلمتي وشبابي
فاتخذت السواد في حالة الشيبـ
ب سلوا عن الصبي بالتصابي

وقال لي الامير اسامة: كان عمي نصر قد اخرج حجة عن
والدته ، فراها في النوم كأنها تزدشه فأتيته والابيات على حفظه
وهي :

جزيت من ولد بر بصالحة
فقد كسبت ثوبا آخر الزمن
وقد حججت الى البيت الحرام وقد
اتيته زائرا يا خير محتضن
فلا تذك يد الأيام ما طلعت
شمس وما صدحت ورقاء في فنن

وكان نصر هذا صاحب قلعة شيزر بعد والده سيد الملك ، وكان
كريما ذا أريحية ، حدثني الامير مرهف بن اسامة بحضرة
والده ، قال كتب القاضي ابو مسلم وادع المعري الى الامير نصر في
نكبة نالته :

- ٥٥٣٨ -

يا نصر يا بن الاكرمين ومن
شفع التلاد بطارف الفخر
هذا كتاب من اخي ثقة
يشكو اليك ذوائب الدهر
فامنن بما عودت من حسن
هذا أوان الذفع والضر

فكتب اليه نصر انه لم يحضرني سوى ما عندك مودع ، وهو ستة
الاف دينار ، فاصرفها في بعض مصالحك واعذر ، وذكر ان نصر
كان برا بوالده سيد الملك ، فقال فيه سيد الملك :

جزى الله نصر خيرا ما جزيت به
رجال قضوا قرض العلاء ونفلوا
هو الولد البر العطوف وان رمى
به حادث فهو الحمام المعجل
يفديك با نصر رجال محلهم
من المجد والاحسان إن يقولوا
سأثنى بما اوليت بالموقف الذي
تقر به الاقدام او تتزلزل
والفاك يوم الحشر ابيض ناصعا
وأشكر عند الله ما كنت تفعل

وتوفي نصر بن علي في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين
واربعمائة بشيزر .

ومنهم الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن
مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ .

وقال مؤلف الكتاب: فارقت في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة
وستمئة بالقاهرة يحيى ، ولقيته بها ، وهو شيخ ظريف واسع

- ٥٥٣٩ -

الخالق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى مني كتباً ، وحدثني أن عنده من الكتب ما لا يعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لي أنه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها ، وسأله عن مولده فقال ولدت سنة عشرين وخمسمائة ، فيكون عمره إلى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد أقعد لا يقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن والفتنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، إلا أن سمعه فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعني من مكائده ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد أقطعه ضياعاً بمصر ، فهو يصرفها في مصالحه ، وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدني شيئاً من شعره وشعر أهله لم يحضرني منه في هذا الوقت ما أورده ، وذكر له العماد في كتاب الخريدة ما ذكر أنه سمعه منه وهو :

سمحت بروحي في رضاك ولم يكن
ليعجزني لولا رضاك المذاهب
وهانت لجراك العظائم كلها
علي وقد جلت لدي الذوائب
فكان ذوابي عن ولائي لحببتكم
رمتني به منك الظنون الكواذب
فمهلاً فلي في الأرض عن منزل العلى
مسار اذا اخرجتني ومسارب
وان كنت ترجو طاعتي باهانتني
وقسري فان الرأي عنك لعازب

وأنشدني أيضاً لنفسه قال : وهو حاضر عند والده ، وذكر أنه
مما كتبه إلى والده :

رحلتم وقلبي بالولاء مشرق
لليكم وجسمي للعناء مغرب

- ٥٥٤٠ -

فهذا سعيد بالذنو منعم
وهذا شقي بالبعد معذب
وما ادعي شوقا فسحب مدا معي
يترجم عن شوقي اليكم ويعرب
ووالله ما اخترت التأخر عنكم
ولكن قضاء الله ما منه مهرب

ومات الأمير عضد الدين بن مرهف في ثاني صفر سنة ثلاث
عشرة وستمائة .

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن
مذقذ

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

- ٥٥٤٣ -

ابن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب
ابن مكحول بن عمرة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن ابي مالك بن
عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن
كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرة بن الحاف بن قضاة بن
مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب
ابن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، ابو
المظفر بن ابي سلامة بن ابي الحسن بن ابي المتوحي الكناني
الشييزي ، الملقب مؤيد الدولة .

ولد بشيزر ونشأ بها واخرجه عمه ابو العساكر سلطان بن علي
خوفا منه على نفسه ، لما رأى من شجاعته واقدامه ، وقدم حلب
مرارا متعددة ، وكان من الأمراء الفضلاء الأدباء الشعراء
الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، ومواقف
مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .

روى عن ابي الحسن علي بن سالم بن الأغبر بن علي السندبي
وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه أبي عبد الله محمد بن يوسف بن
المنيرة الكفرطابي ، ووالده ابي سلامة مرشد بن علي بن
منقذ ، وأبي عبد الله محمد بن شافع بن الحسين بن
العرار ، سمعهم بشيزر ، وأبي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بن
مخلد التميمي الاشبيلي ، سمعه بمصر ، والخطيب يحيى بن سلامة
الحدادكي (٧٥) سمعه بميفارقين ، وأبي هاشم محمد بن أبي
محمد بن محمد بن ظفر ، سمعه بحماه ، وأبي القاسم عبد الملك بن
زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق ، سمعه بدمشق ، وآخرين
غيرهم ، وروى بالاجازة عن ابي الحسن علي بن أحمد بن قيس
الغساني .

روى عنه الحافظان ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله
الدمشقي ، وابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور
السمعاني ، وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني

الكاتب ، وعبد السلام بن يوسف الدمشقي ، وأبو البركات محمد ابن محمد بن علي قاضي اسيوط ، والشريف أبو القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحلبي ، وولده العضد مرهف بن أسامة بن منقذ ، وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو اسحق ابراهيم بن شاكر بن عبد الله بن سليمان ، وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي ، وأبو محمد عبد الله بن عمر بن علي الحموي ، والحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة الكولي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بن علي الربيعي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن أسماعيل القيادي وأبو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن العجمي .

أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو اسحق ابراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التذوي - قراءة عليه بداره بدمشق - ، والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها ، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن الكافي بن علي الربيعي ، قاضي حمص بحلب وبدمشق ، وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقصر الغربي بالقاهرة ، قالوا: أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكتاني قال: أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن سالم بن الأغبر بن علي السنبسي بثر شيزر سنة تسع وتسعين وأربعمائة قال : أخبرنا الشيخ أبو صالح محمد بن المذهب بن علي قال : حدثنا جدي أبو الحسين علي بن المذهب بن أبي حامد قال : حدثنا أبو حامد بن همام قال : حدثنا محمد بن سليم القبرسي قال : حدثنا ابراهيم بن هدية عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا من بكى على ننب في الدنيا حتي تسيل الدموع على حر وجهه حرم الله بيباح وجهه على جهنم» (٧٦) .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي

قال: (٧٧) أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الامام قال : أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري ، أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر ، قلعة بالشام من الثغر ، أمير فاضل غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسية واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار (٧٨) بظاهر دمشق بحوران واجتمعت معه بدمشق عدة ذوب ، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية ، عاقت عنه من شعره شيئاً ، وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة ديبس بن صدقة مع المسترشد بالله ، قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شريقيها ، سألته - أعني أبا المظفر - عن مولده ، فقال : ولدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين وأربعمائة - أنا الشاك .

أخبرنا زين الأمان أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن فيما أثنى لنا في روايته عنه قال : أخبرنا عمي الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ، قال : أسامة بن مرشد بن علي بن المقلد ، بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكتاني الملقب بمؤيد الدولة ، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ، ذكر لي انه ولد سنة ثمان وأربعمائة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وخدم بها السلطان ، وقرب منه وكان شجاعاً فارساً . ثم خرج الى مصر ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام ، وسكن حماة ، واجتمعت به بدمشق ، وأندشني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٧٩) .

قرأت بخط مؤيد الدولة أسامة في كتابه الموسوم «بأزهار الأنهار» (٨٠) وقد أجاز روايته مع غيره لجماعة أجازوا لنا ذلك عنه منهم : الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان قال : ومما يخصني من

غرائب اللبن انني حين ولدت التمس لي من يرضعني ، فقدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة ، ليس لها ولد صغير ، فدرت على وارضعتنني الى حين فطمت وعاشت بعد فطامي نحو من خمس عشرة سنة وكانت رحمها الله متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة .

أنبأنا الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمد قال : قال لي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملقى : الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منذر شاعر أهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بـطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، فقصاصه الطوال ، لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد (٨١) ولا يذكر على مذهبها نسبها الى ليلى ، وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من قصولها والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب .

قلت: ولم يذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه احدا ممن تأخرت وفاته عن وفاته غير اربعة او خمسة ، أبو المظفر أسامة بن منذر هذا أحدهم ، وذلك لجلالته عنده ، وعلو منزلته .

وأنبأنا محمد بن اسماعيل بن عبد الجبار بن أبي الحجاج المصري قال : أخبرنا عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد حامد الكاتب الأصبهاني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» تأليفه ، قال : أسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه اماره الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقى سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتنكب سبيل الملاة والملاة ، واشتغل بنفسه ، ومجاورة ابناء جنسه ، حلوا المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصارييف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق

الغوطة دمشق المغبوبة ، ثم نبت به كما ينبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ، (٨٢) فبقي بها مؤمرا ، مشارا اليه بالتعظيم الى ايام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصـوصا بالاحترام حتى أخذت شيزر من اهله (٨٣) ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده حتى اعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا بأشعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه وأنيسه ، فاستدعاه الى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وكننت قد طالعت منيل السمعاني ، فوجدته قد وصفه وقرضه ، وأنشدني العامري له بأصبهان من شعره ما حفظه ، وكننت ابدا أشتهي لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٨٤) .

وقرأت في كتاب «أنموذج الأعيان» لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال : الأمير الأوحـد ، العالم ، مجد الدين ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منذ الشيزري الكناني ، مبرز في علم الأدب ، عريق في الذسب ، من بيت التقدم والامارة والسيادة في البداوة والحضارة ، مع عقل كامل وافر ، ورأي وجه العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفا بالاقدام والشجاعة ، معروفا باللسن والبراعة ، اقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وخمسائة ، واخبرني ان مولده في ثالث عشري جمادى الآخرة ، يوم الأحد ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وأنشدني من نظمه ما يضاهي نظام اللآلي ، ويكون قلادة في جيد الايام والليالي .

قلت: كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف سابع عشري

جمادى ، فضرب بخطه على سابع وكتب فوقه ثالث ، والذي يظهر لي ان المضروب عليه هو الصحيح •

وقرات في كتاب الاعتبار تأليف أسامة بن مرشد : ولدت أنا وهو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد - في يوم واحد ، يوم الأحد سابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

أخبرني ابو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن الحلبي قال : سمعت أسامة بن مرشد بن منقذ ، مؤيد الدولة ، يحكي لنا بدمشق ان سبب اخراج عمه اياه من شيزر انه قتل اسدا ضاريا بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني ابا العساكر سلطان بن علي - منها خوفا على نفسه منه . وقال لنا: جاء الخبر الى عمي بأن في بعض نواحي شيزر اسدا ضاريا قد أذى الناس في طريقهم ، فتقدم عمي الى عسكره كلهم ان يركبوا بكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدم اليهم للتأهب للقاء الأسد وقتله .

وقال: فاستدعيت غلامي وأمرته باسراج دابتي وأخذ رمحي معه ، وركبت انا والغلام في اليوم الذي أمر عمي بالتأهب له ، وخرجت وغلامي معي حتى اتيت الموضع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمل على فقاتلته وصرعته ، ونزلت اليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميطه معه على الدابة التي تحته ، وبخلت شيزر وبث بها ، فلما أصبح الصباح ركب عمي وعسكره ، وخرجوا يطلبون الأسد ، فوجدوا جثته مطروحة بلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلم .

قال : وتحدث غلامي مع الغلمان بذلك فشاع بينهم حتى علم عمي به ، فرجع وبخل شيزر ، وصعدنا على العانة الى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمي نصف الليل ، وطلبني ، وأمر من أسرح له مركوباً ، وأمرني بالركوب وقال : أريد ان تجيء معي الى موضع

- ٥٥٤٩ -

سماه خارج شيزر في شغل ، فركبت معه حتى ابعثني عن
شيزر ، ثم قال لي : يا بن اخي شيزر لك فهبها لي ، فوالله ما بقيت
أقدر على مساكنتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فكري
فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل فايش يكون معي لو سولت
لك نفسك ان تفتك بي ؟ ومنذ رجعت الى القلعة ليس لي فكر الا
فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هذه ولا قرار الى ان بادرت الى
اخراجك فما اقدر ان اسألك وانت على هذه الصفة!

قال : فامتثلت أمره ، وودعني ، وعاد الى شيزر ، قال: فخرجت
منها وأقمت في مكان سماه لنا شذعني اسمه .

قلت: والى هذا اشار في قوله ، وقد أسن وأرعثت يده ، وكتب خطا
مضطرب الحروف .

فاعجب لضعف يد عن حملها قلما

من بعد حطم القنا في لبه الأسد (٨٦)

أشدنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد
المطلب الهاشمي قال : أشدنا تاج الاسلام أبو سعد عبد الكريم بن
محمد بن منصور السمعاني ، ح .

ثم أشدني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بن
علي الفزكي بدمشق قال : أشدنا أسامة بن مرشد بن مذقذ
الشيزري لنفسه :

يا نهر مالك لا يصـ

سدك عن مساءتي العتاب

أمرضت من أهوى ويا

بي أن أمرضه الحجاب

- ٥٥٥ -

لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الذواب (٨٧)

قال العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب
الاصفهاني - وقد أورد لأسامة هذه الابيات في خريدة القصر : قد
قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر مخترع بنيه ، ومبتدع فكر ، الا
أن هذه الابيات لطيفة المعنى ، ظريفة المغزى ، مقصدها
سهيل ، وموردها سهل ، ولو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها
عقل . ولا شك أن حبيبته عند استنشاق هوائها فاز بـرو مهجته
وشفاؤها (٨٨)

أنشدنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي
قال : أنشدني أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ
الكناني لنفسه :

إذا الصب اشفى من جواه على شفا
أتى الياس مما يرتجي بشفائه
وقد زانني يأسى سقاما فكيف
بالشفاء لصب داؤه في دوائه (٨٩)

أنشدني أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل النيلي
قال : أنشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه في كتاب
العصا :

حناني الدهر وأب
لتنني الليالي والغير
فصرت كالقوس ومن
عصاي القوس وتر
أهدج في مشيبي وفي
خطوي فتور وقصر (٢٠٩ - ظ)

كأنني مقيد
وانما القيد الكبير
والعمر مثل الكأس في
لخره يبقى الكدر (٩٠)

أذشينا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال : أذشيني أبو المظفر
أسامه بن مرشد بن مذقذ لذفسه في خرس قلعه .

وصاحب صاحبي في الصبا
حتى تربيت رداء المشيب
لم يبد لي ستين حولاً ولا
بلاوت من أخلاقه مايريب
أفسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب
ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ومثلي أبداً لا يصيب
فأعجب لها من فرقة باعدت
بين أليفين وكل حبيب (٩١)

أذشيني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله
الكولي بالقاهرة قال : أذشينا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن مذقذ
لذفسه بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة في خرس قلعه :

وصاحب صاحبه
ستين حولاً ما رأيت
حتى إذا عاينته
عاينت منه ما أبيت
والهجر فيه - راحة
من كل مصحوب قلته

وأشيدنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال : أشيدنا مؤيد الدولة
اسامة بن منقذ لنفسه في مثله .

وصاحب لا تمل الدهر صحبته
يشقى لذعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب - وأوردتهما في الخريدة ، لو أنصفت فهمك
ان كنت منتقدا وترقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر
فكرك في بحار معانيه لغنمت من فرائد درره ولأليه . ولعلمت اذا لم
يكن هكذا فلغو ، وأنه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجسد فهجر
ولهو ، ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفن
المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه ، وهل في هذا الظمط
ساواه (٩٢)

أشيدنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الحلبي قال : أشيدنا
أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ح .

وأشيدنا محمد بن أحمد بن علي الفزكي قال : أشيدنا أبو المظفر
اسامة بن علي الكنانى لنفسه :

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تشعب
إلام دمعى من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب

- ٥٥٥٣ -

ان كان هذا لأن تعبينني السحر
سبا فقد اعتقني الريب

أحببتكم فوق مادوهمه الـ
خلق وخنتم أضعاف ما حسبوا (٩٣)

أورد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب هذه الأبيات في الخريدة
وقال : تأمل معاني هذه الأبيات بعين التأني والذبات تعرف أن
قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية وكل من
يملكه الهوى ويسترقه قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا أن يكون كبيرا
غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل
منه ، وقول « قد اعتقني الريب » في غاية الجودة ، ونهاية
الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من الحلال ، وألعب بقلوب
المتيمين من نسيم الشمال (٩٤)

أنشدنا شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن
علي بن حموية قال : أنشدنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد
ابن علي بن مقلد بن منذر لنفسه :

أيا تاج فرسان الهياج ومن بهم
ثبتت أواخي مالك كل متوج
قوم اذا لبسوا الحديد عجبت من
بحر يدافع في لظى متوهج (٩٥)

أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال : أنشدنا أبو المظفر أسامة
ابن مرشد لنفسه وقالها على لسان الشيخ أبي صالح بن المهذب
رحمه الله ، وكانت فيه حدة مع فضل وعلم وتقي ، وكان نزل بشيزر
فريق من العرب معهم جارية اسمها شوق مستحسنة ، وكتب
الأبيات ورمى بها نسفا بشيزر ، فوقع منها بيد الشيخ أبي صالح
رحمه الله ، فقامت قيامته ، ولم يدر أحد من عمل الأبيات ، فقال له

الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله ، وهو مؤدبه هذه الأبيات التي قد رميت ما يحسن يقولها
الا أنا ، أو القاضي أبو مرشد بن سليمان ، أو أنت ، وأنا وأبو
مرشد ما قلناها وما قالها غيرك ، وهي .

قولا لريم في حلة العرب
اليك اشكو ، ما يصنع اسمك بي
بم استجازت عيناك سفك دمي
وأخذ قلبي في جملة السلب
لولاك والدهر كله عجب
ماخفرت في ذمة العرب
جارك أولى برعي ذمته
إن أنت راعيت حرمة الصقب
هذا هوى كنت في بلهنية
عنه فيا للرجال للعجب
ايسترق الكريم ذا النسب ال
واضح عبد مستعجم النسب
ويحمل الثار من به خور
عن احتمال الحجال والقلب
نشدتك الله في احتمال دمي
فمعشري ما يفوتهم طلبي
ما فات قومي آل المذهب من
قبلي ثار في سالف الحقب
فلأ تريقني دما لذي ادب
يسطو بأقلامه على القضب (٩٦)

قلت : هذا أبو صالح ابن المذهب ليس هو أبو صالح الكبير محمد
ابن المذهب بن علي بن المذهب فإن اسامة لم يدرك زمنه لأنه توفي سنة
خمس وستين وأربعمائة وهذا غيره ، ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

- ٥٥٥٥ -

أذنشدنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن حموية قال : أذنشدنا
اسامة بن منقذ لنفسه :

اساكن قلبي والمهامه بيننا
واذسا عيني والمزار بعيد
تملك الاشواق لي كل ليلة
فهي جديد والفرق منيد (٩٧)

أذنشدنا محمد بن أبي جعفر بن علي قال : أذنشدنا اسامة
لنفسه :

ابي لي ان ابالي بالرزايا
فؤاد لا يروع بالخطوب
ونفس لا تسف لاستفاد
ولاتأس على وفر سليب
وعلمي أن ما هووى وأخشى
يزول بغير شك عن قريب (٩٨)

أذنشدنا الامام أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان
الأسدي قال :

يارب ان اساءتي قد سوت
بيد الكرام الكاتبين صحائف
والخوف منك ومن عقابك مقلقي
فارحم مخافة ذي الفؤاد الراجف
من خاف شيئا فر منه هاربا
واليك منك مفر عبد خائف (٩٩)

وأذنشدنا محمد بن أحمد بن علي القرطبي قال : أذنشدنا اسامة
ابن مرشد لنفسه . وكتبها على كتاب نسخه :

- ٥٥٥٦ -

يارب حسن رجائي فيك حسن لي
تضيع وقتي في لغو وفي لعب
وانت قلت لمن اضحى على ذقة
بحسن عفوك إنني عند ظنك بي (١٠٠)

قال لي أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي : توفي
اسامة بن مرشد بن منقذ بدمشق في سنة أربع وثمانين
وخمسمائة ، قال : وفيها دخلت دمشق .

أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
قال - في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة - في كتاب
التكملة لوفيات النقلة : « وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر
رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي
سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى
الشيئزى بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون ، وكان مولده
بشيئز في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان
وثمانين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان منها ، حدث عن أبي
الحسن علي بن سالم السنبسى وغيره ، سمع منه الحافظ أبو سعد
عبد الكريم بن محمد السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن
الدمشقي وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن صبرى ، وأبو
محمد عبد الغنى بن عبد الواحد ، وحدثنا عنه ولده الأمير الأجل أبو
الفوارس مرهف وغيره ، وهو من بيت الأمانة والشجاعة ، وله اليد
البيضاء في اللغة والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة وكان
مشهورا بالشجاعة والاقدام ، وبخل بغداد ، والموصل ، ودمشق
ومصر (١٠١)

أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن
نضر بن مذقد الكناني الكاظمي الشيزري الملقب مؤيد
الدولة مجد الدين

من وفيات الأعيان لابن خلكان

من أكابر بني مذقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم ، وشجعانهم
له تصانيف عديدة في فنون الأدب. ذكره أبو البركات بن المستوفي في
تاريخ إربل ، وأثنى عليه وعده في جملة من ورد عليه ، وأورد له
مقاطيع من شعره ، وذكره العماد الكاتب في الخريدة ، وقال بعد
الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبوا الدار بالكريم ، فانتقل
الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن
رزيك ، ثم عاد الى الشام ، وسكن دمشق ثم رماه الزمان الى
حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمه الله
تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان في أيام الظاهر بن الحافظ
والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن اليه وعمل عليه حتى قتل
حسبما هو مشروح في ترجمته .

قلت ثم وجدت جزءا كتبه بخطه للرشد بن الزبير حتى يلحقه
بكتاب الجنان وكتب عليه أنه كتبه بمصر سنة احدى وأربعين
وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر في أيامه ، وأقام بها حتى قتل
العادل بن السلار إذ لا خلاف أنه حضر هناك وقت قتله. وله ديوان
شعر في جزئين موجود في أيدي الناس ورأيت بخطه ونقلت منه
قوله :

لا تستعز جلدا على هجرانهم
فقواك تضعف من صدود دائم
وأعلم بأنك ان رجعت اليهم
طوعا والا عدت عوبة راغم
ونقلت منه في ابن طليب المصري وقد احترقت داره
انظر الى الايام كيف تسوقنا
قسرا الى الاقرار بالاقدار
ما اوقد ابن طليب قط بداره
نارا وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصري دلال
الكتب ، كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن ، فاحترقت فعمل
نشاء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري
الأصل المصري الدار والوفاة :

اقول وقد عاينت دار ابن صورة
والنار فيها مارج يتضرم
وكذا كل مال أصله من مهاوش
فعما قليل في نهاير يعدم
وماهو الا كافر طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصاب
مالا من مهاوش أذهب الله في نهاير » والمهاوش الحرام والنهاير
المهاك ، والوجيه المذكور هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي
ابن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة ، وكان سمسارا في الكتب
بمصر ، وله في ذلك حظ كبير ، وكان يجلس في دهليز داره
لذلك ، ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء
والفضلاء ، ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى
انقضاء وقت السوق ، فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية لبيع
كتبه ، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع
وستمائة بمصر ، ودفن بقراقتها رحمه الله تعالى .

ولابن مذقذ من قطعة يصف ضعفه :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القناني لبة الأسد

ونقلت من ديوانه ايضا ابياتا كتبها إلى أبيه مرشد ، جوابا عن
أبيات كتبها أبوه اليه وهي :

- ٥٥٦١ -

وما لشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويذست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارضهم فؤادي
كظمت على أذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا
كأني ماسمعت ولا رأيت
تجدو إلي نذوبا ماجنتها
يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ماضمرت غدرا
كما قد أظهروه ولا نويت
ويوم الحشر موعنا وتبدو
صحيفة ماجنوه وماجنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب الى بعض
أهالي بيته ، في غاية الرقة والحسن وهما :

شكا ألم الفراق اناس قلبي
وروع الذوى حي وميت
وأما مثل ماضمت ضاوعي
فاني ماسمعت ولا رأيت

والشيء بالشيء يذكر ، أنشدني الأديب أبو الحسن يحيى بن عبد
العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر ، وكان
شيخا كبيرا وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت قال : فلما بلغني ذلك
كتبت اليه :

أيها السيد الأديب دعاء
من محب خال من التذكيت

- ٥٥٦٢ -

أنت شيخ وقد قربت من النا
ر فكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الأمير أبي المظفر اسامة بن منقذ المذكور
لنفسه ، وقد قلع ضرسه وقال : عملتهما ونحن بظاهر اخلاط وهو
معني غريب ويصلح أن يكون لغزافي الضرس :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفسي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب وكنت أتمنى أبدا لقياءه ، وأشيم على البعد
حياءه ، حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين ، وسألته عن مولده
فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان
وثمانين وأربعمائة ، قلت : بقلعة شيزر ، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث
والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بدمشق
رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون وبخلت تربته
وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئا من القرآن
وترحمت عليه .

وتوفي والده ابو اسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة
رحمه الله تعالى .

وشيزر - بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها
وبعدها زاء مفتوحة ثم راء - قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة
بهم وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد ان
شاء الله تعالى .

اسامة بن منذر
من المقفى الكبير للمقرئ

اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منذ بن محمد بن
منذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن
عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة
ابن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن
ثعلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، أبو المظفر ، مؤيد
الدولة الشيزري .

مولده :

ولد يوم الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين
وأربعمائة - وقيل : ثالث عشرينه ، وقيل : في شهر رمضان
منها - والاول هو الصحيح وكانت ولادته بقلعة شيزر .

وتوفي بدمشق في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة
أربع وثمانين وخمسمائة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون .

وهو من أكابر بني منذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم
وشجعانهم ، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، وله ديوان شعر في
جزئين .

وانتقل من شيزر الى دمشق فسكنها مدة ، ثم سار منها الى
مصر في خلافة الحافظ لدين الله هو وأخوته أبو المغيث
منذ ، وشرف الدين مرشد وأولادهم ، والوزير نظام الدين أبو
الكرام مدسن ، لاستيحا شهم من الأتابك معين الدين أنر لجير
الدين أبوق صاحب دمشق ، وخوفهم منه ، وقدموا في جمادى الآخرة
سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فاستمر بها الى أن ولي العادل بن
السلار الوزارة ، فاختص به .

تحريضه على قتل الظافر :

فلما خرج العسكر من القاهرة لحفظ عسقلان من الفرنج في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وعليه عباس بن تميم ربيب الوزير العادل علي بن السلار ، ومعه من أمراء الدولة ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ هذا ، وكان خصيصا بعباس ، ونزلوا على بلييس ، تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وماهم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة مصر وأخذ يثرب على العادل كونه جرده ، فقال له أسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لي بذلك .

فقال : هذا ولدك نصر بينه وبين الخليفة - يعني الظافر - مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فإنه يحبك ويكرهه ، فإذا أجابك فاقتل عمك .

فوقع كلامه من عباس بموقع ، وجهز ابنه الى الخليفة ، وكان من قتل ابن السلار وولاية عباس الوزارة ماتقدم في موضعه .

فلما استقل عباس بوزارة الخليفة الظافر ، وكره اختلاط نصر ابن عباس بالخليفة الظافر ، ثقل أسامة على أمراء مصر ، واستودشوا منه لعلمهم أنه هو الذي دبر قتل ابن السلار وتحذوا بقتله ، وخيلوا للظافر منه كونه من أهل الشام ، وهواه مع بني العباس ، ومتى ترك وقع منه مالا يتدارك ، وبلغه ذلك فخاف من الظافر ، وأخذ في الحيلة لنفسه ، وشرع يدبر في فتنه أخرى ، فأغرى عباس الوزير بابنه نصر ، وبالحق حتى قال له يوما : كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك ، ومن أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء ؟

فغضب عباس من ذلك وطلب ابنه وعذفه فلم يصغ لقوله واستمر على معاشره الخليفة الى أن انعم عليه بناحية قليوب ، فقال له أسامة بحضرة ابيه: ما هي بمهرك غالية!

فامتعض عباس وشق عليه هذا القول ، وقال لاسامة : كيف الحيلة في الخلاص مما يلينا به ؟

فقال : هين ! هذا الخليفة يأتي في كل وقت إلى بيت ولدك خفية ، فمره إنا جاءه أن يقتله .

فما زال عباس بابنه نصر حتى قتل الخليفة كما ذكر في ترجمته . فلما أقام عباس الفائز عيسى في الخلافة بعد قتل الظاهر ، وقدم طلائع بن رزيق من الاشمونيين لأخذ ثار الظاهر آل أمر عباس إلى أن فر من القاهرة ، هو وولده نصر ، وأسامة ، في عتة من أصحابهم ، بعدما نهب لاسامة عند خروجه من مصر أربعون غرارة (١٠٠) جمالية مخاطة فيها من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير ، وأخذ من اصطبله ستة وثلاثون حصانا وبغلة بسروجها ولجمها وعدتها ، وخمسة وعشرون جملا ، وأخذ من إقطاعه يكوم اشبين مائتا رأس بقر لبساتينه وأوسيته ، وأهراء غلة .

هروبه من الافرنج وخذلانه العباس :

فخرج عليهم الافرنج ، ففر أسامة وتبعه أصحابه ، وتركوا عباسا وابنه حتى قتل عباس وأسر ابنه نصر في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر ، وسار أسامة إلى دمشق في سنة تسع وأربعين وخمسمائة فاقام بها .

ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان

صلاح الدين يوسف دمشق ، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز
الثمانين .

قال فيه العماد الكاتب : وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه ،
معتدل التصارييف ، مطبوع التصانيف .

شعره :

ومن شعره في قلع ضرسه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لذفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الإبد
انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح الدنيا ويجمعها
حتى إذا مات خلاها وما فيها

وأقال :

لأرمين بذنبي كل مهلكة
مهولة يتحاماها ذوو الباس
حتى أصادف حينئذ فهو أجمل بي
من الخضوع وأستغني عن الناس

وقال قصيدته المشهورة التي كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها
إلى مصر يعتب على الأمير معين الدين أنر ، وهي من غرر القصائد:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولاسعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري ، بم استوجب هجرهم
ملوا فصنهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جدوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ حبرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودائعهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القلم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى ، وذكرى في آذانهم صمم
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا ؟ اقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي وما ابغي بهم بدلا
حسبي بهم أنصفو في الحكم أو ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلغ أميري معين الدين مالكة
من نازح الدار ولكن وبه أمم
وقل له : أنت خير الترك فضلك
الحياء واللين والإقدام والكرم

وانت أعدل من يشكى إليه ، ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته

وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت

به النصيحة والأخلاص والخدم

وما ظننتك تنسى حق معرفتي

إن التعارف في أهل النهى ذمم

ولاعتقلت الذي بيني وبينك من

ود ، وان أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقافتك ما زالوا بغشهم

حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخرس يبغيون الغنى ، ولهم

لو أنهم عدموك الويل والعدم

والله ما نصحووا فيما استشرتهم

وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرقوا من مقال في سفارتهم

وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

أين الحمية والذفس الآية إذ

ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أذنت حياء أو محافظة

من فعل ما أذكرته العرب والعجم

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة

ولم يرو سنان السميري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم

لا يعتريه به شيب ولا هرم

وأن جاركم جار السموات لا
يخشى الأعادي ولا تغتاله النقم
وما طمان بأولى من أسامة بال
—وفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبتنا جنينا نذوبا لا يكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم
ألقيتهم في يد الأفرنج مبتغيا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
هم الأعادي وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم
إذا نهضت إلى مجد تؤثله
وإن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم الذي يبكيك مبتسم
حتى إذا ما أنجلت عنهم غيابتها
بعد عزمك وهو الصارم الخدم
رشف آجن عيش كله كدر
ووردهم من نذاك السلاسل الشبم
وإن اتاهم بقول عنك مختلق
واش فذاك الذي يحبى ويحترم
وكل من ملت عنه قربه ، ومن
والإك فهو الذي يقصى ويهتضم
بغيا وكفرا لما أوليت من منن
وموقع البغي أولا جهلهم وخم
جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فالرجال إذا ما جربوا قيم
هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

- ٥٥٧٢ -

أم فيهم من له في الخطب ضاق به
ذرع الرجال يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أنناهم وأبعني

فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به

ولا لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست أسي على الترحال من بلد

شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعاقبت بحبال الشمس من كبدي

ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

لكن فراقك أساني وأسفني

ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالنهر طوع يدي

وكل ما نالني من يؤسه نعم

فلما وقف عليها معين الدين ألزم الأديب أبا الثناء محمود بن

نعمة بن رسلان الشيزري ، حتى أجاب عنها بأبيات أولها :

يا ظالما ناره في القلب تضطرم

مهلا ! فلحظك تغشى زوره الظلم

كأنك القوس تردي وهي صارخة

وما ألم بها من غيرها ألم

تجني وتلزمي نذبا أتيت به

ووجه غدرك باد ليس يذبهم

وقال (١٠٣) :

للخالق في يوم القيامة موقف

تجزى البرية فيه عن أعمالها

- ٥٥٧٣ -

ومطوق الارضين غاصب حدها

فليهننا من قد حازها بكمالها

وقال :

ياليت أن بيارنا كانت كذا :

طورا تفرقنا وطورا تجمع

لكنها درست وأوحشها الردى

من أهلها فهي القفار البلقع

لا يرتجى لهم إياب جامع

أشتاتهم حتى يضم المجمع

وقال :

وسائل الدار عن كان يملكها

هل آذنت عنهم من بعدهم خبر

فلو أجابت لقاتل وهي عالة

بسيرة السلف الماضي ومن غبرا

أرتهم العبر الننيا فما اعتبروا

فصيرتهم اقوم بعدهم عبرا

وقال :

وما أشكو تلون أهل ودي

ولو أجنت شكاتهم شكوت

مللت عتابهم ويذست منهم

فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارصهم فؤادي

صبرت على أذاهم وانطويت

ورحت عليهم طلق الحيا
ولا والله ما أضمرت غدرا
تجدوا لي نذوبا ما جنتها
هم نقضوا موثقي وعهدي
يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولم يوفوا ، وهأنا قد وفيت
ويوم الحشر موعدا وتبدو
صحائف ما جذوه وما جنيت

كتبه :

وله عدة مصنفات ، منها : كتاب التاريخ البصري ، ذكر فيه أهل بدر ، وعدتهم ، وأسماءهم ، وأنسابهم ، وأحوالهم . وذكر فيه مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى آخره ، واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم . وكتاب الشيب والشباب ، ذكر فيه الخضاب وما جاء فيه ، ورتبه على سبعة أبواب في كل فصول . وكتاب ملحق به سماه « استدراك المرتاب » .

وكتاب الحنين إلى الاوطان . وكتاب أخبار النساء ، بدأ فيه بدواء ، وذكر فيه أم موسى ، ومريم ابنة عمران وأخبارهن ، وأمهاة العرب ، والأخوات ، والزوجات ، والبنات المنجيات ، والنساء التي سارت بذكرهن الاشعار ، واستقصى أخبار الجميع وأشعارهن وما قيل فيهن . وكتاب وسائل السائل ، يتضمن الادعية وأوقاتها وما ورد فيها . وكتاب المنازل والديار . وكتاب نصيحة الدعاة . وكتاب الاشارة . وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ ، فيه انتهى عن الزنا واللاواط والفواحش . وكتاب أزهار الازهار ، فيه

صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره . وكتاب العصا ، فيه ذكر عصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وما جاء في العصا . وكتاب الذوم والاحلام . وكتاب التآسي والتسلي . وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين . وكتاب المحاسن . وكتاب نزهة الناظر في إملاء خاطر ، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا ، وكتاب لباب الآداب ، وكتاب مكارم الاخلاق ، في عشرين مجلدة ، صنفه في مدة عشر سنين ، مدة مقامه بمصر ، وكتاب المنتخب من أشعار العرب ، وكتاب المختار من محدث الاشعار ، وكتاب المماثلة في الشعر ، وكتاب معونة المساعد على حصر الشواهد ، في الشعر أيضا ، وكتاب الأقسام ، في الشعر أيضا ، وكتاب أمان الخائفين ، في الزهد ، وكتاب الليرة والحصون ، وكتاب فيه شعر جماعة سألهم ابن الزبير عنهم ، وكتاب المكارم والكرم ، ورعاية الذمم ، وكتاب الفرق ما بين المحبة والهوى ، وكتاب زور أبي العلاء ، وكتاب ضربة الولاء ، وكتاب اختيار شعر أبي تمام ، وكتاب التجارة المربحة ، وكتاب مختار شعر أبي نواس .

كتاب الاعتبار

الباب الاول

حروب واسفار

معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمهما الله ، ابن بشر (١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن منهب ، فطعنه فارس من الافرنج ، يقال له ابن الدقيق (٢) ، في صدره اخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خاق كثير . وأمر اتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث آلاف رأس .

ثم ان ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والافرنج ، خذلهم الله ، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين (٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المذكل ؟ » يعني ابنه شهاب الدين أحمد ، قلت : « وأي شيء فعل ؟ » قال : « انفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « وأي شيء عملت ؟ » قال : « نفذت الي اتابك اقول (تسام موضعك) » ، قلت : « بدس ما فعلت ! اما يقول لك اتابك : لما كانت لحما أكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء أعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بأجالنا ، وأنت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فصلت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

شغاك للمسير ، فورد على قلبي من هذا هم عظيم وقلت : « أترك
أولادي وأخوتي في الحصار وأسير إلى الموصل ٩ » ، فاصبحت ركبت
إليه وهو في الخيام استأننته في الرواح الى شيزر لأحضر لي نفقة
ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأنن وقال : « لاتبطيء » ، فركبت
ومضيت إلى شيزر ، فبدأ منه ما أوحش قلبي ، وعزل ابني مبارك
ونفذ إلى داري ، فرفع كل ما فيها من الخيام والأسلح والرحل
وقبض على ابن اختي ، وتتبع أصحابي - فكانت نكبة كبيرة
رائعة .

(من شيزر إلى دمشق)

فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق ، ورسلك أتاك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثمانين سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك إلى اشتغال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان ذكبة أخرى . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أذن إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تماؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من الدوة على أحسن حاله (٤) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من	بجيدي مثل أطواق الحمام
تعبيني لك الاحسان طوعا	وفي الاحسان رق الكرام
فصار إلى مودتك انتسابي	وان كنت العظامي العصامي
الم تعلم باني لانتماي	اليك رمى سواني كل رام
ولولا انت لم يصحب شماسي	لقرى دون إغزار الحسام

- ٥٥٨٣ -

ولكن خفت من نار الاعادي
عليك فكنت إطفاء الضرام (٥)

(من دمشق الى القاهرة)

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تحت ثياب ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتية كبيرة ، وألتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج .

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخاف : بين الريحانية ، وهم عبید الحافظ ، وبين الجيوشية (٦) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ، وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحن نبيت ونصبح بالسلح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ يذكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته (٧) ، فحشد

وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور (٨) يقول : « يا أمراء هذا نجم الدين وزيرى ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الامراء شيخ يقال له لكرون : « يا أمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقدوموا » فدفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الحوف (٩) ، اجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موصعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوف قد جمع من لواته (١٠) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايتهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب - يعني جند مصر - قد شغلوا الأمير - يعني عباسا - بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير موافقهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى » قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبتة .

وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقه على دلاص (١١) ، فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاqqه .

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل ، وتولى الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه ، وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل واقتراق اصحاب العادل ، وانا تلك الليلة عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء واقترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون ، وكانت الدار ، لما أراده الله من سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والاخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب ، قبل وصول أصحابهم إلى الباب الاخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلماني نخبتهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلا من السودان النين كاذوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بالسيوف خلفه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق (١٢) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم (١٣) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه .

وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت إلى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتاجه » وأخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجالست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيت حسن الحديث حسن الحاضرة ، هو يتحدث وأنسان استدعاه فمضى معه ، ونفذت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبتة ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقليل له : « كان يزور التواقيع » ، فسبحان مقدر الأعمار ، وموقت الأجل .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الأفرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، أي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون (١٤) من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الأفرنج ، واكتب إلي بوصولك لأمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب دبيقى (١٥)
وسقلاطون ومسحج ودمياطي (١٦) وعمائم ، ورتب معي قوما من
العرب أدلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما
دزونا من الجفر (١٧) قال لي الادلاء: « هذا مكان لا يكاد يخلو من
الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهريين ، وسارا قدامنا
إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالوا :
« الفرنج على الجفر ! » ، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي
ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة
فوارس من ممالكي وقلت : « تقدمونا ، وأنا في إثركم » ، فساروا
يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على
الجفر أحد ، ولعلهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فنفذت
من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك
العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا
رجلا آخر وامرأتين وصبياننا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي
وقالت : « يا شيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت آمنة ، مالك ؟ »
قالت « قد اخذ أصحابك لي ثوبا وناهقا ونابجا وخرزة » ، قلت
لغلمانى : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا
الثوب » .

وأحضر آخر قطعة سندروس (١٨) قالت : « هذه الخرزة » ،
قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه
ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان الى
مكان » .

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ، وبذو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلا الميتة ويقولون : « نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى » ، وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت : « ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بحسمى (١٩) كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد رمضان لنا هاهنا ، ومارأينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين تعيشون ؟ » قالوا « من الرمة ، (يعذون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به » ، قلت : « فكلا بكم وحمركم ؟ » قالوا : « الكلاب نطعمهم من عيشنا ، والحمير تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لادخلتم الى دمشق ؟ » قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ، وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمراتين ، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت : « لاتقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ، فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ، فقلت : « نستعين بالله تعالى ونسير على الذوء » ، فسرنا ونحن قد أشرفنا من اذفرائنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقدح ، وهو على

الجمال ، والشرار من الزنديتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ،
فقصدنا النار حتى لحقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل
كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال
لي « لاتعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في
خرج على بغل سروجي مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت
ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار (٢٠) ودينير مغربية في خرج على
حصان مجذوب معي وسلمته الى غلام ، فكنت اذا نزلت جعلت
الاخراج في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، ويسطت فوقه
بساطا آخر ، وأنام على الاخراج وأقوم وقت الرحيل قبل
أصحابي ، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلما منهما ،
فاذا شداهما على الجناثب ركبت وأيقظت أصحابي وتهمنا
بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام
الذي معه البغل المجذوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار
يريد يشده بالسموط ، فزل البغل ، وخرج يركض وعليه الخرج
فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني :
« اركب ، اركب » .

وركضت خلف البغل فما لحقته ، وهو كأنه حمار وحش ،
وحصاني قد أعيا من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل
كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا
الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون
مفقود » .

ورجعت الى المنزل واذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة
الخيول ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار .

- ٥٥٩١ -

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصل إلى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قوما أخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصحابك في ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك » قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الآخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسير معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقي في ثلاثين فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم (٢١) ، فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجاء أمير من الاتراك الذين كانوا معي يقال له برسق ، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق ، قلت : « أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيق ؟ » قلت : « أي شيء تقول ؟ » قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدزنا ، ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت ، وخرجت ، وأنا - الله يعلم - ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا .

ومعي في الجند براق الزيبي معه عبد له أسود دين كثير الصلاة ، أدق ما يكون من الرجال وأذبههم (٢٢) فجاء إلى ذلك الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبكى المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .

- ٥٥٩٢ -

فلما وصلنا عسقلان سحر ، ووضعنا اثقالنا عند المصلى ،
صبحونا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج اليينا ناصر الدولة
ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعوا اثقالكم » ،
قلت : « تخاف لا يغلبونا الافرنج عليها ؟ » قال : « نعم » ، قلت :
« لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصلنا إلى
عسقلان ، ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟ !

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا إلى بلادهم
جمعوا لنا وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة
عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسقلان ، فدرت على
سرب الرجالة وقتل : « ياصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا
وإياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وإن نصرنا علينا كنتم
أنتم سالمين عند سوركم » ، فامتنعوا من الرجوع ، فتركتهم
ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها ، فاحتطنا
بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فرموها كما هي مذشورة
وساروا راجعين .

فلما انفسدوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة
ولا غناء ، فرجع الافرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم ذفرا ،
فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعوا ، ورموا تراسهم ،
ولقينا الافرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة
من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقالوا : « كان ابن
منقذ أخبر منا ، قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا
وافترضنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة من
سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان ، رحمه

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل الدين لا الدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل (٢٣) وقتالها ، فوصلناها وقتلناها ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا نتنقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الأفرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للأفرنج ، لمغادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الأفرنج ! » فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الأفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الراييتين فضاء ، أصحابنا المذقطنون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

وما زال الأفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم - واقتال بيننا - لا يجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصرنا علينا ، كنا أفيناهم .

فأقامت بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى (٢٤) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وقرسانهم وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ، فإنه كان جهز عسكرا إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن بابليس ، لحفظ البلاد من الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام مع أبيه في العسكر أياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأذكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ، فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بذومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ، وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب الذوية نحو من ألف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما راوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته (٢٥) .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفذوهم ويحوزوا كلما لهم ، حتى يتفانوا ، فأحضرناني ليلة وهما في خلوة يتعاطبان ، وعباس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشتاط منها عباس ويزيد في لومه وتأنيبه ، فقلت لعباس : « يامولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ أجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، ما أتبرا من خطئه ولا صوابه ، أي شيء هو نذبه ؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بذفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوما وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مالا رأيت مثله مجتمعا قبله ، وأغفله أياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياما . وبعث إليه ثلاثين بغلا رحلا (٢٦) وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلا ولا نهارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟ » قلت : « عند الطاقة اقرأ القرآن ، فإنني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوى عزمه على سوء ما قد حملة

- ٥٥٩٦ -

عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستزك الشيطان وتتخضع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فأطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متذكرين ، وهما اتراب ، وسسنة واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما مولانا ما جلس للسلام ؟ » فتبدل الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟ » قال : « يامولاي مولانا ما ندرى أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » . فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه » ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : « اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهو حامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ :
الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهما الأمير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من
المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة ،
وصوت السيوف على إنسان ، فقلت للغلام لي أرمني : « أبصر من
هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « ما هؤلاء مسلمون ! هذا
مولاي أبو الأمانة ، يعني الأمير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شق
بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقد أخذ رأس الأمير
يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفرور
منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فأدخلوهما ، في
خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه من
البغي القبيح الذي يذكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى
المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه
استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ،
ودخلوا فوجدوا ذلك الاستاذ خلف الباب ، وهو ميت ، وفي يده
المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ،
فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعل جفت عليه قلوب
الناس ، وأضمروا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من
بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه
الله ، يستصرخون به . وحشد ، وخرج من ولايته (٢٧) يريد
القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والأسلح
والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه ، وذلك يوم

- ٥٥٩٨ -

الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والذساء والصبيان يرمسوننا بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ، وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية (٢٨) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطفت الأمر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لا تريد ، وبعلت (٢٩) عن أن تطفئها » . ورددت رأيه عن ذلك .

وأخذت الأمان للامير المؤتمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ، واعتذرت عنه ، فصفح عن جرمه .

(أسامة يعود إلى دمشق)

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسول بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فذفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجة إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فإله الله لا تصحبه ، فأنت شريك في كل خير أناله » . فكان الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الأفرنج ، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيك ما توهمه ، أو بلغه ، أحضرني واستدافني بالإيمان المغلظة التي لا مخرج منها أنني أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى ذفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمة أخذ أهلي ووالدي وأولادي إلى داره ، وقال لي : « أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق ، واحملهم مع والدنا ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجذوبة على أيدي الرجال ، كعادتهم بمصر ، ومائتا بغل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل أثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة ، فحضرتة وقد دخل عليه غلام يقال له عذير الكبير ، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى

الشام ؟ خذ خزانك وأهلك وغلمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بكرة ، فلما حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتى أعمل شغل سفري ؟ » قال : « عندنا رسل من دمشق ، تسيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما من الأمراء واستدلفهم أنهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه ، واحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنابس ، وطلحة ، وجعفر ، ولواته ، واستدلفهم بالمصدف والطلاق ، على مثل ذلك ، فما راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا السلاح ، وزحفوا إلينا ورؤوسهم الأمراء الذين استدلفهم بالأمس ، فأمر بشد دوابه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسد لا يصلون إلينا لا زحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عذير الكبير الذي كان اشارة عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهم وشتهم ، وقال : « روحوا إلى بيوتكم » ، فسيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخرج أحضر الاتراك ، وهم عند باب النصر ، والكتاب يذفون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الاتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشتغلت باخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فاخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصريون إلينا فاخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوا ، فاخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية بسرورها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقر للتناثين وألف شية (٢٠) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعة ضحى نهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم اخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتي حصان أبيض ، هو أردأ خيلي ، شدة الركابي ولا يدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لأثب ، فتتعتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي وبخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم أخذوا حصاني وسيفي .

ورأني الاتراك فعادوا إلي ، ونفذ لي ناصر الدين ابن عباس

حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصاة أشد بها جراحي ،
فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربت
بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جاست في بعض دهاليز داري على كرسي
وعرضوا علي ستة عشر حمل رويا ، وما شاء الله سبحانه من
القرب والسطائح .

وعجزت عن حمل أهلي ، فرددتهم من بليس إلى عند الملك
الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فأحسن إليهم
وانزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العرب الذين
يقاتلون الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا (٣١) إذا عنا .

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الأول ، فصباحنا
الافرنج في جمعهم على المويلح (٣٢) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك
واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خزائنه وحرمه ، وقتلوا من
ظفروا به . وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبد الله محمدا ، رحمه
الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف
للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فheid ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ، ورجال
وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين ،
فسألت : « من ها هنا من الأمراء بني ربيعة ؟ » قالوا : « منصور
ابن دغل » ، وهو صديقي ، فدفعت لواحد دينارين وقلت : « امض
إلى منصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه
بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم . فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا: « ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش » وتلك العين تكفي ربيعة ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن يذشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفل وصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيـق من الطريق التي طلعت فيها وأعر ، فنزلنا إلى الوطاسالين ، وما كننا نسلم ، فجمعت للامير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الأفرنج وبني فهد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الواقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوارا (٣٢) صغيرا مليحا أفرنجيا ، وكنت قد خرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقال : « كنا نريد لهذا الرهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والذي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ أحضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على الرهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقال لي ناصر الدين : « ادلنا عليك وأخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، ما أسعدني بخدمتك ! » فلما خرج علينا الأفرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقع الأفرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل

وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين - يعني ابن عباس - نهب ، فمنه ما نهبه الأفرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم » .

فامرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ » ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه منبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتى أن رجلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره ، وكانت له امرأة سالحة ، فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟ » فقالت : « أنا قطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعرفته حال البنت ، فكتب إلى الحافظ مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيها أمين الدولة كمشتكين الأتابكي (٣٤) ، رحمه الله ، فأكرمه وأنزله وخدمه ، وملك الأمراء أتابك زكي بن أقسزقر ، رحمه الله ، على بعلبك يحاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتباً عارفا ، ولجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتاك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأني شيء ترى ؟ » قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتاك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه إلى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحـد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « فرط الأمر مني ورهنت قلبي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتاك ، معه من العسكر ما يذفـذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هـو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك إلى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟ » قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتـم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجمع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لا يدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع ؟ » قلت : « إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقريقي (٣٥) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتباً حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعى الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الأمر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت ألقاك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به النين كاذوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله (٣٦) ، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته ، ومشوا الى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبأت القاهرة لهروبه ، وأصبح في منظره في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدر عين للقاء ، فلما وصلهم هزمهم وبخل القاهرة .

وكننت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الأقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فراه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟ » قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأوما كآنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « أرجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجع أفصده فاننا اخبر مذك بالجراح ، وليس له دواء غير القصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس » ، قلت : « الحمد لله ! ولولا أنني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، وكتب الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر ، وكان محسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال : « يا فلان ، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتتها ، تعود إليها ! العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الأفرنج وأسير من يحضرهم » . فأنفذ رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من الذققات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من

دمياط في بطسه من بطس الأفرنج ، قلما دنوا من عكا والملك ،
لأرحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالقووس ،
وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي
الملك ، ما هذا أمانك؟ » قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ،
إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال :
« فتسبينا؟ » قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفدش
النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه
النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من
ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال
« توصلوا بهذه إلى بلادكم » - وكانوا رجالا ونساء في خمسين
نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود (٢٧) رعيان
وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا زهاب
ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة
آلاف (٢٨) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن زهابها حزاة في قلبي ما
عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض
برحمته ويختم بلطفه ومغفرته ، وذلك وقعات كبار شاهدها مضافة
إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الأجال ، وأجذفت
بهلاك المال .

حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع
الكفار والمسلمين مالا أحصيه ، وسأورد من عجائب ما شاهده
ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستذكر لمن

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدوبين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟ » قال « طعنني سرهذك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعنك سرهذك أي شيء يكون ؟ » قال : « ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهذك ! » والله إن الموت أسهل علي من أن يطعنني ، لكنه استغفلني واغتالني » ، فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين يا أبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهذك ، والله لأطعننه أو لأموتن دونه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟ » فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه قطعنه وعاد (٢٩) ، فكأن هذا الشعر عن سرهذك وجمعة بقوله :

لله درك ما تظن بئائــــر

حرا ن ليس عن التراث براقد

أيقظته ورقدت عنه ولم ينم

حذقا عليك وكيف نوم الجاهد

إن تمكن الايام منك وعلها

يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهذك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،

- ٥٦١٠ -

الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعلة سرهذك ما فعله مالك بن الحارث الا شتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الايادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكة ، وكان مالك بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر ؟ » فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولاصبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟ » قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمي الا شتر .

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبيكون ، فقال لأحدهم : « انخل يدك في فمي » ، فاندخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها - يعني الضربة - سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟ » قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشققها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لا يستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك (٤٠)

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قد هلك ،
أننا التقينا بواد خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى
أرضنا وكمن لنا كميناً ، فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا ،
فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام نميري ، وقال :
« أصحابنا قد انتشروا ، إن حملوا عليهم أهل كوههم » ، قلت :
« أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « يا أمراء ،
دعوا هذا يرد الناس ولا تتبعوه ، وإلا حملوا عليهم قلعوهم » ،
قالوا : « يمضي » ، فخرجت أنا قل (٤١) حصاني حتى رددتهم ،
وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكنوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا ، وخرج كمينهم وأنا على
فسحة من أصحابي ، فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب
أصحابي ، فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، قد
حذب (٤٢) من وراء أصحابي من قبلي الطريق وأنا في شماليه ،
فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجل
عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسبقني
إليه ابن عمي ، فطعنه ، فوقع هو وحصانه ووقع الرمح فقعة
سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسل رسولا إلى شهاب الدين ،
فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما
أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ،
فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟ » قال : « لا ، والله ،
ولافيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى
حصانه ، وسمعت قعقة كسر الرمح ، لما غشيه ليث الدولة من
يساره مال على جانبه الايمن وفي يده قنطارية (٤٣) . فوقع حصانه
على قنطاريته وهي على وهدة ، فانكسرت ، وتذبذب ليث الدولة
برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقة قنطارية فارس بن
زمام ، ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين ، وأنا
حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبت

- ٥٦١٢ -

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنتره :

الخيـل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ماأرادوه :
والبيت المقدم من أبيات لعنتره بن شداد يقول فيها :

إنني أمرؤ من خير عبس منصبا
شطري وأحمي سائري بالمنصل
واذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت
ألفيت خيرا من معم مخـول
إن المنية لو تمثل مثلـت
مثلي إذا نزلوا بضـك المنزل
والخيـل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصـل
ودعوا نزال فكنت أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل (، ،)

ومثل ذلك ما جرى لي على أفامية . فإن نجم الدين بن إيلغازي
ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم
الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة (٥٠٠)
وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه
عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والذي ،
رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن
معي بشيزر من الناس ويستدفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية ،
وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يوميات من مسيره ، وسرت في
نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أفامية ما

فيها خيالة ، ومعى خالق عظيم من النهاية والبابية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهاية والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب أنا خائف منه لا يكون جاذبا لي ليعود علي ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحو من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أنني قتلته . فجمعت أصحابي وهم سالمون .

وكان معي مملوك صغير يجز فرسا لي دهماء مجذوبة ، وتحتيه بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح » ، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الأفرنج في ألف ، وما أظن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء ، وفيما هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الأفرنج لأقتل أو أحمي ذلك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلا :

يفر جبان القوم عن أم رأسه
ويحمي شجاع القوم من لا يلزمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ، فجنّته فاذا عنده رجل من الأفرنج ، فقال : « هذا الفارس قد جاء من افامية يريد أن يبصر الفارس الذي طعن فليب الفارس ، فإن الأفرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خرقت الزرنية من طاقتين وسلم الفارس » ، قلت : « كيف سلم ؟ » قال ذلك الفارس الأفرنجي : « جاءت الطعنة في جلدة خاصرته » ، قلت : « نعم الأجل حصن حصين » ، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمل في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارسا من رجالنا يقال له عدي بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو معرّى ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الأفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صدره وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ،

- ٥٦١٥ -

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه انسان
بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما
كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي
لا يموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون
من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على
ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله
لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة
صوته ، يموت من ابرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية
تخرج من جذبه لا يصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه
في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلوننا ، فجاءوا
نزلوا منزلا كاذوا ينزلونه ، وهجموا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى
آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلوننا ، فما ركبوا من
خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من
الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في
عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الافرنج ، إلى أن حمل الغلة
ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولينا يقال له حسام الدولة مسافر ،
رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ،
فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فإذا
شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ،
رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « يا شيخ ، أي شيء تعمل
ها هنا ؟ » قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء
الكفار » ، قال : « يا شيخ ، بأسناذك تقطع عن خيلهم ؟ » قال :

« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكيننا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهذك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكريهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والترس والرمح » - وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : « أغرت زمان مقامي بجمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجأؤوني به ، فقلت : يا شيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمنة ، قد أخذني العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال : « واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأني شيء بينك وبينه ؟ » قال : نزل عسكري الافرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما أظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي : إلى أين ؟ قلت : أخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لاتهد ، قال : لا تغتر ، والله ، ما أدعك تأخذ شيئاً ، فما التفت إلى قوله ويمممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبتي وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أنني اسلم منهم .
ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسكر الا
يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبز
من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي
ابن الدودويه من أهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهم الله ، على
كفرطاب (٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ،
رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودويه دار بهم وأخذ حصانا ركبه
وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الدس خلفه ويعتقد أن
بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والدس خلفه حتى
ركض قدر فرسخين والدس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ،
واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته . فوقف
حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان
والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رمنية (٤٨) وقد استدعاني فقال
لي : « يا فلان ، أي شيء من حصانك الذي خييته ؟ » وكان قد بلغه
خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبي ،
حصني كلها في العسكر » ، قال : « فالحصان الافرنجي ؟ » قلت :
« حاضر » ، قال : « أنفذ احضره » ، فأنفذت أحضرته وقلت
للغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه الساعة
عندك » ، ثم أصبح سباق ، فسبق ، ورده الى اصطبلي . وعاد
استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل من الجند
يقال له رافع الكلابي ، وهو فارس مشهور ، اقتتلنا نحن وبنو
قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وبأسطناهم

- ٥٦١٨ -

على فسحة من البلد ، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهو لابس كزاغندر (٤٩) وعلى رأسه خوذة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحرف عليهم ، فضربه سهم كسماء (٥٠) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذاك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح ما بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد إلى كفرع (٥١) لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فركبت ولقيته وأبصرنا الموضع .

ثم اجتمع عسكرينا وعسكريه ، وأنا على عسكري شيزر وهو في عسكريه ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها ، وهو مكان لا تتصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جنودنا : « تريد تكسرهم ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « اقصد بنا باب الحصن » ، فأراد ان يرمني عن ذلك ، فأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارانا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فدا سونا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم الى الحصن وصفوا عوالي قنطارياتهم في الباب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والذشاب ، وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على جوبة الاكراد (٥٢) ، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة النميمري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضائها .

- ٥٦١٩ -

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه بيد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والدي » - يعني الوالد ، رحمه الله - قال : « إذن إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل . (٥٣)

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « ياقرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :

- ٥٦٢٠ -

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدي بالسيف مخراق لاعب (٥٤)

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم : « هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ » (٥٥) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهان إلى درگاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « يا حمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمنا مسجدك - وكان له مسجد على باب داره - وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك » ، قال : « أفعل يا أمير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « يا أمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبلاً القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « يا حمدات ! » ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالاً ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فراجع الافرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

- ٥٦٢١ -

حمدات لعمي : « يا أمير، لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة ؟ »

فأذكرني قول الفند الزماني (٥٧)

أيا طعنة ما شيخ
كبير يفن بالسي
تفتيت بها إذكـ
ـره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاء جاء يركض إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال : « شاهدت سرية أفرنج تائهن قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فركب أبي وعمامي وخرجوا بالعسكر إلى السرية التائهة وإذا به السرداني صاحب طراباس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهم رماة الأفرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على أصحابنا هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له يا قوت الطويل ، وأبي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهما يتبعان أصحابنا ، فرمى الفارسين والفرسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال قد فعل فعلة يجب تأديبه عليها ، فكأما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « يا أخي ، بحياتك هب لي نذبه ولا تنس له تلك الطعنة » ، فيصفح عنه الكلام أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حدثني والدي ،

- ٥٦٢٢ -

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبهان
سحرا ، « أمير حمدات ، أكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم يا أمير ،
أكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك
الثريدة ؟ قال : « يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز
واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح
هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لا يس وعليه
خوذة اسلامية بأذف فزرقه رجل بحرية - وكان معظم قتالهم مع
العرب ذلك الزمان - فوقع الحرب في أذف الخوذة فانطوى وأدمى
أذفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أذف
الخوذة كان أهلكه .

وضرب مرة أخرى بذشابة في ساقه ، وفي خفه دشني (٥٨) ، فوقع
السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله
تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين
شوال سنة سبع وتسعين واربعمئة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب
الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل
الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت (٥٩)
فضربه في ذلك الموضع الذي أدخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج
الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها
المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى
يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد
لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي
سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع
شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

- ٥٦٢٣ -

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يا زيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح ! » فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لا يذسخ سوى القرآن ، فسأله يوما فقلت : « يا مولاي كم كتبت ختمه ؟ » قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها - يعني المساطر - تحت خدي في القبر » ، فعدناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءاته وغريبه وعريبته وناسخه ومنسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحرمة والزرقة ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرفف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليتهم » ، وقال لشمعون : « حدثهم حديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لأفديه بذنبي فـقطعتني قـطـع من أضلاعي ضـلعين وهي - ونعمتك - عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تذفذ تحضر القمطرة والأضلاع » .

فأقام عنده وأرسل من أحضر القمطرة وفيها عظمان من أضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا اعملوا في خدمتي »

فاما الأمر الذي سأله عنه أيام والده تاج الدولة فإن جدي سيد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ ، رحمه الله ، سير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، الى خدمة تاج الدولة ، وهو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به من يحفظه ، وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكلون حول الخيمة ، فكتب عمي إلى أبيه ، رحمهما الله ، يقول : « تذفذي في الليلة الفلانية - وعينها - قوما من أصحابه - ذكرهم - وخيلا اركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل ، فما انكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهم يتلون كتاب الله تعالى ، فلما أصبحوا ولم يروا شمعون دخل كعادته دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعز الدولة قد راح ، فأنهوا ذلك إلى تاج الدولة . فأمر بإحضاره ، فلما حضر بين يديه قال : « كيف عملت ؟ » قال :

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال :
« وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت
رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . وما اشتراني
ورباني إلا لأفديه بذنبي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم إلى هذا الغلام
خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه
« وما أنكر عليه وما احزنه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له
رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والدي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ،
منها : طعنة طعننها في جفن عينه السفلا من ناحية المآق ، ونشب
الرمح في المآق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا
بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لا تستقر ، وإنما الجفون التي
تمسك العين ، فخطأها الجرائحي وداواها فعادت كصالتها الأولى
لا تعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما
وقد خرجا إلى الصيد بالبراة نحو تل ملح (٦٠) وهناك طير ماء
كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا
عليه ، فرجعنا وكان الوالد (أبل) من أثر مرض ، فاما عمي فحذف
بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم
يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وأنا معه صربي وفي
يده سدفجلة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض
أنت ادخل من السكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة أخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قراجا ،

ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقرب إليه منا ، وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامولاي ما تركب حصانك ! » قال : « بلى » وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهو على بغلته ، فلمسا عاد أولئك وأمنا قلت : « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لاتركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع ! » قال : « يا ولدي ، في طالعي أنني لا أرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وامتنع ، فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سربة من الافرنج ، نحوا من عشرة فوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهو داخل الباب ، قال : « شيزر » ، فرموه بذشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ، والافرنج رائجون غير منزعجين ، ولحقنا من الجند نفر ، فقلت لعمي : « عن أمرك أخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين » ، قال : « لا » ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لا يعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمننا للافرنج ، فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد القرصة فيهم قبل ركود الحرب ، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود ، وجمعة فارسنا

وشيخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يا فرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت إبطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بأقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ودفد إلى خلفه ، فاندكست القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لا بأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان . فقلت : « يا أبا محمود ، اشتهي اتقرب من الحصن أبصره » قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من تلك الطريق ، فقال لي جمعة : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعلنه غيرنا ، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قدوس ونشاب ، فرمانا ، ولا سبيل لنا إليه فهزمننا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخیلنا سالمة ، ورجعنا بخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك المراحل الذي

هزمننا حسرة « اللي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمننا راجل واحد وقد هزمننا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهزم النين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا النين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن انهزمنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستقتلين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوقع وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب النين في الارض منهم سالدون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربوه ، فاجتاز جمعة النميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « يا أبا محمود ، ما تعصب جردك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشد الجراح » ، وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمراء ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم فربما صحت الاجسام بالعلل (٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي نخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يا ابن عمي ، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعذوه رموه ، وطعذوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زربية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الواقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (٦٢)

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي إلى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معي ، فأنا أرعى له ذلك ، فدخل بالبعلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغللمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل ، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرتنه فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزي (٦٣) إلى داري ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه إلى داري ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، وما زال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضممر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص (٦٤) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تالفت ، فتصيده ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزا . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في النبع (٦٥) . فنبحت الدراجة في أجمة حلفاء وبخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في تلك النقطة ففقتها ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تالفت

- ٥٦٣٠ -

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشرط البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات ، وغنيم شق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

وأغار علينا عسكر انطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلني أنال منهم فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في من عبر محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يا محمود » ، فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي اليهم ملتفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدرها رجل(رجل) من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربتها بالمهاميز ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصطفين وبيننا الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر ، فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا إلى رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زربية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وأدركه أصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجالة الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعة ، رحمه الله ، يعتذر عن ابنه محمود وقال : « هذا الكلب انهزم عنك » ، قلت : « وأي شيء يكون ؟ » قال : « ينهزم عنك ولا يكون شيء ؟ » قلت :

« وحياتك يا أبا محمود وانت تنهزم عني أيضا » ، قال : « يا شين والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة (٦٧) تحت الطاحون الجلالى .

وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة . فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي - مولد لنا - وكان رجلا شجاعا ، فقلت لهما : « نعبير الماء ونأخذ الدواب » ، فعبرنا ، فأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبته فجازت فيها قدر شبر ، فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « يا أبا محمود ، ما قلت لك إنك تنهزم عني وأنت تلوم ابذك محمودا ؟ » قال : « والله ما خفت إلا على الفرس . فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسكري حماة : سرهناك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه وإذا هو خضر الطوط ، فقال : « الصنيعة ، يا فلان ! » فعدلت عنه الى آخر قطعته فوقع الرمح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشد عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة (٦٨) بي فطار في السرج على رقبة الحصان ، فوقع . ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالى ، ف ضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل ، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكري أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلما نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصدنا منهم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ،

- ٥٦٣٢ -

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقتين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرج من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادقا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمة ونحن نراهم من الحصن ، وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لا يخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتهم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما لنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هذا خذلان ! » ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ تدرسيهما جعلهما معالف للدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى خلا عسكرهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وربها علينا بعد أن اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل (٦٩) علي ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقد الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، قال فارس أمر عظيم عندهم .

واقد قال لي الملك : « يا فلان ، وحق بيني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : « والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟ » قال : « قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يا مولاي ، أنا فارس من جذي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا بذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيموند ، فقاتلنا ثم اصطالحنا ، فنفذ حصانا للام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فنذنه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ، ليس سابق بالحصان بين يدي بذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدي بذكري فصار الفرسان يكشفون سوا عنه ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه بذكري ، فقال له حسنون : « يا مولاي ، أريدك تعطيني أمانك أنك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فاعطاه امانه ، على ما توهم حسنون ، فانهم لا يتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح ، وجاءنا
بذكرى في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وكانت خيلنا
لقت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا
كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع
والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من
عند البيطار ويأتيه كزاعنه ، فأبطأ عليه وألقاه طعن كامل المشطوب
فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هذه
البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسة » ، وأنا إذ ذاك
واقف خلف والدي ، وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال ،
فنظر الكزاعنات في عيبيها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد
يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقدم على حجرته ، وهو
معري ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها (٧٠)
فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمت في وسط موكب
الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه
اليسرى ، فقال لهم بذكرى ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى
إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئا » ،
فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم
كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا من أحسن الخيل ، فاشتراه
بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير ، فحمل عليهم
الافرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحرد بذكرى وقال : « أنتم
فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء
سرجند - يعني رجالة - ما تدرون تقلعونهم من موضعهم! » قالوا :
« انما خوفنا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعناهم » ، قال : « الخيل
لي ، من قتل حصانه أخافته عليه » ، فحملوا على الناس عدة
حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قدروا يزحزحونهم من
مواقفهم .

وكان بفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا (٧١) ،

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعة في القتال ؟ » ، وجمعة يقول : « ترى ما التقى بدرهوا في القتال ؟ » .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟ » قالوا : « لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهوا ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته : يحيى بن صافي الاعسر ، وسهل بن أبي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس آخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدا منهم طعنه فشلة ما ألحقه حصانه ليتمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل أولئك النفر الى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ولا موهم وأزروا بهم وقالوا : « أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ، كنتم افترقتم له فكان طعن واحد منكم وكان الثلاثة قتلوه ، ولا قد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري فكان تلك الهزيمة منحتم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعبودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أقامية في بعض شغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الراج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله - لارحمه الله .

ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير : فمن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مائة وقد قصده ذكرى صاحب انطاكية في جمع كثير، فخرج اليه عمي ووادي ، رحمهما

الله ، وقالوا: « الصواب ان ترحل - وكان نازلا شرقي البلد على النهر - وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على الاسطوحات في المدينة ونلقى الأفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا » فرحل ونزل كما قال له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شيزر خمسة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجال جياذ ، فصافوا من قبلي الماء والأفرنج نزول شماليه ، فمنعوههم من الشرب والورود نهارهم ، فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي (٧٢) فمنعوههم من الورود كما عملوا بالأمس ، فـرحلوا في الليل ونزلوا على تـلل التلول (٧٣) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فاحتاطوا بالماء ومنعوههم من الورود ، ورحلوا في الليل متوجهين الى أفامية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم ، فقتلوا حصانه ، وأخذوه بالجراح ، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه .

وبدل الأفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد شهر كتاب دنكري صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول: « هذا فارس محدشم من الأفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقد نفذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته (٧٤) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصانه ، وقاتل حتى رجع الى اصحابه » ، فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الأجل الاحجام ولا يقدمه الاقدام .

ومن ذلك ما حكاه لي العقاب الشاعر ، رجل من أجنادنا من المغرب ، قال : « خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجاله وهم يسبقون ثمانية جمال ليبيعوها ، قال : بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البرية ، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا ، فقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فطردناه فسبق ، ثم عاد إلينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمل علينا ، فطعن راجلا منا اوثقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صاحبنا فوقع الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا ، وطعنه الفارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمال ، والا افنيتمكم ، قلنا : تعال خذ نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها اربعة اتركوها وقفوا وخذوا اربعة وامضوا ، ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا ، وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولا طمع ، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال » .

ومن ذلك ان ذكرني صاحب أنطاكية أغار على شيزر ، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى ٠ ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقة لا يوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسة مائة فجاء شيطان من فرسانهم الى ذكرني فقال : « اعمل لي صندوقا من خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل أو ثقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيف ، فاسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقة الى المغار ، فأخذها وأنزل كل من كان فيها الى ذكرني ، وذلك أن المغار بهو ما فيه مكان يستتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع دشابة الا في انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيه ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاه مهرها وردّها الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي : « ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال : « أقطع الخليفة والذي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والذي يصانعهم لخوفه منهم ولانتقاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال : يا فتيان ، اسعدوني على حط الخرج ، فجئنا حططنا معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلس هو والجارية أكلا شيئا ثم قال : « اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار ؟ فقال له والذي : الطريق هاهنا - وأشار الى الطريق - ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فضرط له وقال : « أنا أخاف من العيارين ! »

فتذكره والذي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رأهم أخرج قوسه وترك فيه سهمها واستوفاه يريد يرميهم ، فأنقطع الوتر ، فهجم عليه العيارين ، فانهزم ، وأخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : يا شباب ، بالله لا تهتكوني ، وبيعوني نفسي والبغل أيضا بعقد جواهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومافيه ، قالوا : « قد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وأخذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك خفك اليسار • فادفعه لي ، قال : نعم » وانفسح عنهم وأخرج الساق (٧٥) موزا وإذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجع اليهم ، فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحدا حتى قتل ثلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فاذا والذي في الجماعة الباقين من العيارين فقال : « وأنت فيهم » فتشبهت بهي أعطيك نصيبك من الذشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين امض بهم الى شحنة البلد يشنقهم وأولئك قد زهروا ورموا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمس مائة وقد خرج والدي ، رحمه الله ، بالعسكر الى اسباسلار برسق بن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش أوزبه صاحب الموصل ، وسنقر دراز صاحب الرحبة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بكتمر ، وزنكي بن برسق وكان من الأبطال ، وتميرك ، واسماعيل البسكجي ، وغيرهم من الأمراء فنزلوا على كفر طباب وفيها أخو ثيوفيل والأفرنج ، فقاتلوها ، ودخلوا الخراسانية في الخندق يذقبون ، والأفرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فأحترق الجميع ، وبقي الأفرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فوقع لي أن أدخل في النقيب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والذشاب والحجار مثل المطر علينا ، ودخلت

- ٥٦٤٠ -

النقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقبوا من الخندق الى الباشورة وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ، ونظموا النقب بالأخشاب كذلك الى اساس البرج ، والنقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلما وصلوه وسعوا النقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ، ويخرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض النقب من النقش قد صارت طينا ، فرأيتهم وخرجت ولم يعرفني الخراسانية ، ولو عرفوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب ، وأصبحوا طرحوا فيه النار ، وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقع البرج ، وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخول عليهم ، فوقع اوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو ، فوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا من الحجارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقع ، وقد صارت جوانبه كدرج السلم ، فتوغل فيه حتى صعد الى أعلاه ، فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحدا وراء واحد حتى صاروا على البرج والأفرنج لا يشعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الأفرنج فرموهم بالنشاب ، فجرحوا الذي طلع في الاول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الأفرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الأفرنج يقاتلون الناس بالذشاب والحجارة ، فصعد رجل من الأتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة ندف ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البهم وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زريتان وبيده قنطارية وما معه ترس ، فلقى التركي وفي يده سيفه ، فسطعنه الأفرنجي ، فدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الأفرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ماعملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعهم في سراق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فوقف وكان سرجنديا وقال: « كم تأخذون مني؟ » قالوا: « نريد ستمائة دينار » ، فصرط لهم وقال: « أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من أين لي ستمائة دينار؟ » وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله: « يا أخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم » .

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقت من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نصرزها نريد نعمـرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذة ، وذا قدم مات في النار ، قرأيت منهم عبرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيـة من لؤلؤ الخادم صاحب حلب ذاك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من انطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين » ، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ، وصباحهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الأفرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها . وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الأفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، واقترق العسكر – من سلم منهم من دانيث – وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له زمير العلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الروج الى الأفرنج ، فعثروا في البلد على قافلة من الأفرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض : « من يدخل عليهم ؟ » قال زمير : « أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه افرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده ، فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى اصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيظ وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تلفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهرى وكان في خدمة الأمير شمس الخواص التـونـتاش صاحب رمنية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلاف ، قال : « أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد رمنية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعى قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رمنية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينه فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثانى ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وإذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلामه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأذن وطلع ، فبدأ

بالبواب قتله ، وإقيه الغلام فقتله ، وبخل على الوالي قتله ، وعاد الى ابن الوالي قتله ، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخبواتهم ، وكان الوالد ، رحمه الله يقول لي: « كل جيد من سائر الأجناس ، من الرديء من جذسه ما يكون بقيمته ، مثل حصان جيد يسوى مائة دينار ، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار ، وكذلك الجمال ، وكذلك أنواع الملابس ، الا ابن آدم فان ألف رجل أريداء لايساوون رجلا واحدا جيدا » ، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهم الى دمشق ، واتفق أن أتاك زندي رحمه الله ، أخذ حماة ونزل على حمص ، فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكثرى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله الى حيث اكتراه وودعه ، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر من حصون الجبل ، فلقيهم انسلان فقال لأرباب الدواب : « لا تمضوا ، فان في طريقكم في الموضع القلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم » قال : « فوقفنا لاندري مانعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف ، فنحن كذلك اذا الرئيس يونان قد أقبل مسرعا ، فقلنا ما لك ياريس ؟ قال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لاسيركم ، سيروا . فسرنا معه الى ذلك الموضع ، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا ، فلقيهم يونان وقال : « يا فتيان ، موضعيكم انا يونان ، وهؤلاء في خفارتي ، والله ما فيكم من يتقرب منهم ؟ » فردهم والله جميعهم عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور - وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الأمراء ولاءه الطور ، وهو قريب من بلاد الأفرنج - قال : « وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الأفرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت : « من أين أخذوك ؟ » قال : « من الطريق » فأقام عندي يويمات وقطعوا عليه خمسين ديناراً ، فقال لي يوما من الأيام : « تريد تعلم ان ماخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالاسجان فقلت له : « قل للصاحب اشتهي أتحدث معك » فعاد واطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ماسأل أحد عني ولايدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال : « افعل » ، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت اثرا له ولا سمعت له خبرا ، فبدست منه ، فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب وقال : « قم والله لي خمسة (٧٦) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقمتم معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب .

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه .
كنت اتردد الى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين
محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت للوالد . رحمه الله . على
بغدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك ، فكان الأفرنج
يسوقون أسراهم الي لأشترتهم ، فكنت أشترى منهم من سهل الله
تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في موكب له
يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال
ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكم فاشترى منهم من قدرت على
شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم ، فسألت عنه فقل
لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ ، فقلت له : « بكم تبييعني
هذا ؟ » قال « وحق بيني ما يبيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما
اشتريتهم بثلثة واربعين ديناراً » فاشتريتهم واشتريت لي منهم
نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفرا بمائة
وعشرين ديناراً، ووزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد
اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وما كان معي ثمنهم ، والآن قد
وصلت الى بيتي ، إن أردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنته
انا ؟ » قال : « لا بل انا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس في
ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعل خير وكسب
مذوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقي من الأسرى عند كليام جينا ثمانية وثلاثون
اسيرا ، وفيهم امرأة لبعض النين خلصهم الله تعالى على
يدي ، فاشتريتها منه ، وماوزنت ثمنها ، فركبت الى داره لعنه
الله ، وقلت : « تبييعني منهم عشرة ؟ » قال : « وحق بيني ما يبيع الا
الجميع » ، قلت : « ما معي ثمن الجميع ، وأنا اشترى
بعضهم ، والمذوبة الاخرى اشترى الباقي » قال : « ما يبيعك الا
الجميع » فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم
الاسير اخفوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه
خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمان المراه التي كنت اشتريتها
وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت : « سلمها الي وخذ
ثمنها » قال : « ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » والزمني بوزن
ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لاسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان
الامير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، رحمه
الله ، عمل على مدينة آمد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ منها
مقصودة ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرا من الاكراد كان مديونا
بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الامر أن تصله العساكر
في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد ، فعول فخر الدين
في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله
يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب
باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى
آمد ، فأشرف عليهم ذلك الامير الكردي وأصحابه من برج ودلوا
اليهم الحبال وقالوا : « اطلعوا » - ماطلع منهم أحد ، فنزلوا
كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك
لا اعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء
الكبار .

وعلم بذلك الامير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية
والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم
نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض النين رموا نفوسهم ، وهو
نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده جبل
من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهاة الأسد فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر (٧٧) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له ، فاجتاز بكفرنبيونا (٧٨) وقافلة عابرة على الطريق ، فأروا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة : « يا صاحب الخشت (٧٩) البراق دونك الأسد » فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوق ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شبعان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحدس الدم ، وهو بارك عليه لايؤنيه ، قال : « ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعنت فيها ، فرأني وجاء خلفي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال : « فرأيت الأسد قد قعد وانصب أذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان أثر انياب السبع في جبهته وخفيه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤيدي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة (٨٠) رحمه الله ، يسمع فقلت له : « يا استاذ ، لو ركبت حصانا ولبست كزاغندا وخونة وتقلدت سيفاً وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الافرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ما كان

يجوزك أحد منهم » ، قال : « بلى والله كلهم » ، قلت : « كانوا يهابونك ، ولا يعرفونك » قال : « سبحان الله ، فأنا ما أعرف نفسي ! » ، ثم قال لي « يا فلان ، ما يقاتل عاقل » قلت : « يا استاذ تحكم على فلان وفلان وعدت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانيين ! » قال : « ما هذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لا يحضر وقت القتال ، ولو حضر ما كان الانسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ما هذا شيء يقضي به العقل » .

وكان رحمه الله ، بالعلم اخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الاحدوثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمعة والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد عمله ويباشره من الخطر ، والذفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا نخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمعة والرعدة وتغير اللون ، وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها وفيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يديرون بعسكر الافرنج يسرقون منه ، فأروا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال : « الليلة احرق عسكر الافرنج كله » قال : « ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فراهم الافرنج فقصدهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش ارضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت أسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضدده اننا ركبنا في بعض الايام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء بخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقة ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ملقى ، فرفع رجله ، فثلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له : « يازهر الدولة ، لم رفعت رجلك الى فـــــــــــــــــم السبع ؟ » فقال : « جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسى من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت : « اشغله بها عن اضلاعي أو يدي أو رأسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في مـــــــــوضع تـزول فيه العقل ، وأولئك محضرهم العقل ، فالانسان أحوج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محدود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول : « قد دفنت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رفنية » ، فركب وأرسل اليه من أحضره ، فلما لقيه قال : « قد دفنتني صاحبي في شغل وسر له ، لكنني رأيتك رجلا عاقلا ، فأنا أحذرك به » فقال له عمي : « من اين عرفت أنني عاقل ومارأيتني قبل الساعة ؟ » قال « لأنني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ، فعرفت أنك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال : « حدثني أبو الهيجاء وقال : « بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الامير ابن مروان صاحب بيار بكر يقول : « أريد ثلاثين ألف دينار ، فاجتمعت به وأعدت عليه الرسالة ، فقال : « تستريح وتحدث واصبح أمر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراشي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت جميع الحوائج ، فتركتني أياما ثم أمر لي بالحمام وما أنكر رد الحوائج ، وحملوا معي آلة الحمام أفضل من الآلة « الأولى » وبدلة ثياب أفضل من البدلة « الأولى » وقال الفراش لفراشي كما قال أولا ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت الحوائج والثياب ، فتركتني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد أدخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة أفضل من « الأولى » ، وبدلة ثياب أفضل من « الأولى » ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت الجميع ، فلما حضرت عند الامير قال لي : « يا ولدي » ، ففدنت اليك ثيابا مالبستها ، وآلة الحمام ما قبلتها ، وردتها ، اي شيء سبب هذا ؟ قلت : يا مولاي ، جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى ، أقبل ما تفضلت به وأرجع وما انقضى شغل السلطان فكأنني ماجئت الا في حاجتي ، قال : يا ولدي مارأيت عمارة بلادني وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيتها وعمارة ضياعها أتراني كنت أتلذذ هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قد كيسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادني وتلحقه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا بنا من بلادني اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم نفذ لي الثلاث بدلات ، التي كان نفذها لي وردتها ، مع جميع حوائج الحمام التي نفذها لي في الثلاث بدلات ، فقبلتها ، ولما تجاوز السلطان بيار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد ، فمن ذلك ان أتابك زنكي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأما مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن بلاج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار أتابك بعسكر حسن الى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فكنا ننزل

بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط
فخيم أتابك عليها وبخلنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر
ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على
بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من
البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة
الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال : « يامولاي ، اي شيء
ترسم ؟ فقد تعנית وتعبت في مجيئك » قال : « أتابك احذقه خطبتك
للبنات التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها
مذك » قال : « اسمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستتمهله
بباقيه اياما عينا ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر ما دخل عليه
خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه
الله (٨١) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل
ما عليها وسبي وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم
الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من
غلمانة وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولما كان عليه
جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد
من الأفرنج وقال : « هذا مالك في الزورق » ، قال : « ما هو
صحيح » ، فأتاه آخر قال : « نزل مالك من الزورق وهو جاءني
يمشي » ، فقام جوسلين والتقاء وأكرمه ورد عليه جميع ما كان أخذه
من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

إذا انقضت المدة لم تدفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الأفرنج يقاتلنا ، ومضى
بعضهم مع طغتكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان أتابك

اجتمع هو وايلغازي بن ارتق و الأفرنج في اقامية لمحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقَاتَلُونَا بِالقرب من سور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبطنا معهم ، فشاهدت رجلاً من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الأفرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الأفرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلّف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وأنا في جانب الناس في القتال ، فارساً قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو لبعد ما بيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفاً عليه من الأفرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه ، والأفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبلاً ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فـوَقَفْتُ عليه وأخليت له ركابــــي وقلت : « اركب » فلمــــا ركب ردت رأس حصــــاني الى المغرب ، والمدينة من شرقنا ، قــــال لي : « الى أين تروح ؟ » قلت : « الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال : « ماتطاعن وعلى حصانك لابسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت اوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد نخل في أصحابه.

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ، ولا نقدر نحن نجوز إليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شباب من رحالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكرا الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهو واقف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا اليه سبيل ، وقد جاء الا فرنج فنزلوا على باب المسجد وصعدوا اليه ونحن نقول: لاحول ولا قوة الا بالله الساعة يقتلونه ، فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه ، وعاد الا فرنج نزلوا وركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه ، ولا نشك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرحالة للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من اسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمود بن صالح (٨٢) صاحب حلب ، فلما عاد الروم كان معه - - - - - مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الايام فيها اذ لقيه اذسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معي اوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ ارضاه فوزن له الثمن واعطى ابن كردوس نفقة وقال: «تبلغ بها الى اهلك ، وامض في دعة الله تعالى ، فخرج من القسطنطينية وتوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الا فرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن ابي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا

على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسافوح ذلك الجبل كلها ذقارة وحصى كلما وطئته الفرس انهـر تحت قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى والذقارة تنزل به ، فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عدت رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الأحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الأسراك شربة ماء اعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لأجل تلك الشربة التي سقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحمني الله تعالى فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حبست بحيزان (٨٣) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في الذوم فقال: «أقلع القيد واخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى مذفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت على مزبلة ، فبقي فيها آثار وقوعي واثار رجلي ، ونزلت في واد حول السور وبخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول في نفسي: الساعة يخرجون يرون أثري ويأخذوني ، فأرسل الله سبحانه ثلجا غطى ذلك الأثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا أراهم نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب اليفسانياني رحمه الله .

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يقاتلون الجنة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك أن ملك الالمان الافرنجي ، لعنة الله ، لما وصل الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلولي ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟ قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتل رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الاكراد يقال له فارس ، وكان كاسمه فارسا وأي فارس . فحضر ابي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلاف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهم غير متاهبين لما جرى ، وسبب ذلك انه راسلهم وقال: «نمضي الى اسفونا (٨٤) وفيها الافرنج نأخذها » فسبقه اصحابنا اليها وترجلوا وزحفوا الى الحصن نقيبوه ، وهم في القتال وابن ملاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل من اصحابنا ووقع القتال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقاتل فارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى انخن بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهو محمول بين الرجلين فوقفوا عليه «وهنا» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتمكم في شدة مثل هذا اليوم ، فقلت «اقتل بين ايديكم واجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضى الله سبحانه انه عوفي من تلك الجراح ومضى الى جيلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الافرنج ، فخرجت خيل من جيلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخرجت خيل من اللاذقية تريد

الغارة على جيلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الأفرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنيتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلا .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا بذكري صاحب أنطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باعز (٨٥) من أحسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الأفرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبتة ففذا القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الأفرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبتة ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم أصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج فطعن الأفرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبتة من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تززعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذة بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا أطبق الإنسان كفه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة أبا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشطوب ، وكان ثقیل العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا «اشتريته وركبته ، ومات عندك ، كيف تطلب ثمنه قال » انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة « فعجبنا من جهله وسخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه وأصابه عدة سهام ، فاخرجني من المعركة ومنخرأه يدميان بالدم كالغزلتين ، (٨٦) وما انكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لاني ما انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهي لصلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغتكين ، وأنا بها ، وزحفوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد (٨٧) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال : « قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ربهـم » فقال : « والله ما يردهم الا انت او فلان » ، يعنيني ، فقال لي : تخرج تردهم ، فقلعت زربية كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل واتلعتها ، فلما رددت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حماة فارس غيري ، منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون ، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم ، وأذا عادوا مشيت خلفهم شبرة لضيق المجال

وازيحام الناس ، فضربت حصاني نشابة في ساقه خمشته ، فوقع
بي وقام ، ووقع ، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال النين في ركابي
« ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره » فقلتد والله ما انزل عنه»
فرايت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب الزميري حضر القتال
بين بني زمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي
الرقعة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مالك بن
شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له
قيمة كبيرة ، فطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد
في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل
به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمد بن
ايوب اليغسياني ، رحمه الله ، وذلك ان ملك الأمراء اتابك
زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثلاثين وخمس مائة
بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بدوري
ابن طغديكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخرج من بعلبك
متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغه أن عسكر دمشق خرج يريد
أخذه ، فأمر صلاح الدين ان نركب للقائه ودفع الدمشقيين
عنه ، وهو قد ركب ووقف عند خيمته ، فركبت في
الوقت ، فقال : « كنت قد علمت بركوبي قلت : (لا
والله ، قال : « الساعة نفنت اليك ، فركبت في الوقت !
قلت : « يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابي ويقعد
وهو في يده على باب الخيمة ، وأنا ألبس عدتي وأتقلد سيفي
وأنام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني » .

فوقف الى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال : « البسوا
سلاحكم » ، وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا الى جانبه ، ثم
قال : « كم أقول لكم البسوا سلاحكم ؟ » قلت : « يا مولاي ، لا تكون

تعينني ؟ قال : « نعم » ، قلت : « والله ما أقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكذا اغندي فيه زريتان مطبقتان إذا رأيت العدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصبحنا عند ضمير ، فقال لي : « ما ننزل نأكل شيئا ؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت : « الأمر لك » ، فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قال : « أين كزاغندك فأمرت الغلام فأحضره ، وأخرجته من عيبته وأخرجت السكين فتقتله عند صدره ، وأظهرت جانب الزريتين - وكان فيه زرية أفرنجية الى نيله وفوقها أخرى الى وسطه على كل زرية البطائن واللبد واللاسين ووبر الأرنب ، فالتفت الى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فاحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتابك في تلك الايام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل ، فقال : « هذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه الى غلام فلان » ، فسلمه الى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقدني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من ستين سبعين فارسا وقال لي « خذهم وسر اليهم » ، فمضينا نتراكض والتقينا بواذر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، ودفنت فارسا من اصحابي الى عمي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير اقول لهما : « سيرا بالرجالة فقد كسرتهم » ، فسارا الي ، فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ، ورموا خيلهم في الساروت (٨٩) ، وعبروه سباحة وهو زائد ، ومضوا وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء دفنت تقول لي ؟ قلت : « دفنت اقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال : « مع من دفنت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد » ، قال : « صدقت » ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال .

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهو من فرسانهم وشجعانهم ، فلما بنا منا وما تززعنا رجع ورد رمحه الى خلفه ، فرأيت كالحبل مطروحا على الأرض لا يقدر يرفعه ، فأطلقت حصاني عليه ، فطعنته وقد وصلت إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسي ، فلقيتهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، فرددتهم وقد انقطع نصف يرقى (٩٠) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمي ، وهو يراني ، فلما انفصل القتال قال لي عمي : « أين طعنت علوان العراقي ؟ » قلت : « اربت ظهره ، فمال الهواء بالبندق فوق الرمح في جانبه » .

قال : « صدقت ، ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت » .

(مع الأسود وسائر الحيوانات)

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الأفرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان أفرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمزوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقف ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي: « اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم » .

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على أفريز رواق القنطرة التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكيناً صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميتة .

بل رأيته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة مذقذ ، رحمه الله ، بين

الاسد وبين موكب فيه ابي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والاسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الارض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي ابي ، رحمه الله « لا تستقبله ، يا مجنون ، فيأخذك ! » فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا (٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الأبيض والأسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتاك زنكي ، رحمه الله ، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخى وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الاسد ، اجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجراحي . فقال الطبيب : « مابه بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات » . فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم أصابته نشابة اخرى بعد مدة احقر من « الاولى » وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك ايضا ، كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بذو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رعاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرعا مذبح للغنم يذبح فيه جزاروا البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرعا ، فأسعه زنبور ، فأنفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرعا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له : « يا أخي ، ضمننا هذه الرعا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها ؟ وغدا ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن : « أنت مقصودك ان

ياسعني زنبور أخـر فيقتلني . وأصـيح جـاء الى
الرحا ، فلسعه ، زنبور ، فمات فأيسر الأشياء يقتل اذا فرغ
الأجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فوجدنا
غلاما للأمير اسمه شماس ، فقال له عمي : « أين الأسد ؟ »
قال : « في تلك الحلفاء » قال : « سر قدامي اليها » . قال : « انت
مقصودك ان يخرج الأسد يأخذني » ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه
مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد مالم أكن لأظنه ، ولا اعتقدت ان الأسد
كالناس فيها الشـجاع وفيها الجبـان ، وذلك أن
جويان (٩٢) الخيل جاءنا يوما يركض وقال : « في أجمة تل التلول
ثلاثة سباع » ، فركبنا فخرجنا اليها ، وإذا لبوة خافها
اسدان ، قدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على
الناس ووقفت ، فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث
مذقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رمحه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخرج علينا احد السبعين فطرد
الخيـل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد
الخيـل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا
شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، وردنا رماحنا نحوه ونحن
نعتقد انه يقصدنا فنذشب الرماح فيه فنذقله ، فما راعنا الا وهو
عابر علينا كالريـح الى رجل من اصحابنا يقال له سعد الله
الشيـباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسطت القنطارية فيه
فمات مكانه .

ورجعنا الى الاسد الآخر ومعنا نحو من عشرين راجلا من
الارمن الاجناد رماة ، فخرج السبع الآخر وهو أعظمها خلقا
يمشي ، وعارضه الارمن بالذشاب ، وأنا معارض الارمن انتظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكلما وقعت فيه
نشابة قد هدر ولوح بذبذبه فأقول: « الساعة يحمل » ثم يعود
يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما
ظننته .

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار
يطلب الخيل وتأذى الناس به ، فقبل للأمير معين الدين ، رحمه
الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد أذى الناس . وهو في
الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار
والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للخوان
سلار (٩٣) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار
حتى نبصر كيف يكسره السبع » . فأخرج خروفا الى قاعة
الدار ، وبخل السباع ومعه السبع ، فساعة رآه الخروف ، وقد
ارسله السباع من السلسلة التي في رقبتيه ، حمل عليه
فنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خافه
يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين
الدين ، رحمه الله : « ذا سبع منحوس » أخرجوه اذبحوه
واسلخوه ، وهاتوا جلده . فذبذبه وسلخوه ، واعتق ذلك الخروف
من الذبح .

ومن عجيب أمور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض
شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام
المعند (٩٤) الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد أن يعبد ، ومع
ذلك الغلام كلب له ، فخرج الأسد على الخيل ، فجالت قدماه
جافلة ، وبخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فدوثب
الكلب على ظهر الأسد ، فذفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج
الرجل الى بين يدي والدي ، رحمه الله ، يضحك وقال : « يا

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا أذاني . وقتلوا الأسد ، وبخل
الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .
فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان يذفر
من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فتري السنانير
تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت
الأسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سفح
الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، وإذا رأت العقابان
اللحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ، وما أشبه هيبة
الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره
الفروج الذي مارأى العقاب قط فيصبح وينهزم ، هيبة القاها الله
تعالى في قلوب الحيوان لهنين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو
الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية - واللاذقية لعمري عز
الدولة أبي المرحف نصر ، وفيها اخوه عز الدين ابو العساكر
سلطان ، رحمهما الله - بالكتب بينهما قالوا : «خرجنا من اللاذقية
فأشرفنا من عقبة الميية ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من
الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا
مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد
أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فمما
سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فراه الأسد فوثب
إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمم
قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه
ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل
ينفض شعره ليكشفه من الماء ، ثم لبس فردة زربوله واتكى على
جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا : والله ما قصر ، ولكن على من
يتيه؟ ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما
أصابه ، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد

لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل
الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة
في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها
ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت
منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الأسد مثل
سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم
يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من
غاب أو أجمه وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الأجمة
التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا
بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان
يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، قتلته .

فأما النمرور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعده
وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل
الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر
عندنا نمر في قرية يقال لها معرZF (٩٥) من أعمال شيزر ، فركب
اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وأنا راكب في
شغل لي يقول: «الحقني الي معرZF» ، فلحقته وجئنا الى الموضع
الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت
عن حصاني ومعني قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو
القامة وفي جانبه خرق كالحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق
الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ
القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معني بعض
اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج
طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب اوثقناه بالرمح ، حتى
قتلناه ، وكان خلقه عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية
حتى عجز عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق
اربعين ذراعا .

وقد كان في كنيسة حناك (٩٦) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال: «إذا رأيتموه أعلموني» فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب ، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه ، وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفا عليه من الفأر .

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأذن بهم ، وقد كنت مرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للأفرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهذا جيذا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا» ما يصلح لي ، هذا نمر ما هو فهد فعجبت من أذسه وتصرفه مع الأفرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب ، وعينه زرق ، والفهد وجهه مدور وعينه سود ، وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرًا وجاء به في عدل (٩٧) الى صاحب القدموس ، وهو لبعض بني محرز ، وهو يشرب ، ففتح العدل ، فخرج النمر على من في المجلس . فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩٨) ، وماكنت أصدق

- ٥٦٦٩ -

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: «سافرت من المغرب ومعني غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الامور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جملة وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احفظ برأس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما راه الببر قام ووثب مستقبلة حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه . وما عارضنا ولا آذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا .»

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في بيته وعلمه . (٩٩)

(تجارب حربية)

ومن عجيب الأجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الذقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه الذشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على برج في دار الأمير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، ف ضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرهما من نصفها ، وانقلب كسرهما الذي فيه الأسنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوقع الأسنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطلخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : « كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعدنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: « يا مسلمين الحريم! دخل الروم معنا » فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلّعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعدنا ففترقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله ، فحملوه

الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا
المجبر » ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في
التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب
الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل
المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته» ! ، قال: «يا
مولاي ، جاءتة حجر ثانية أغنته عن التجبير».

قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم
الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع
منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب
أنطاكية ، فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه الى
دمشق ، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها
واشترأها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها
وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره
مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابل ومقابل
حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد
كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قنيب بن
مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال:
«ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه
الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قنيب الذي جس لهم
كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالافرنج
وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز
بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من
الافرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عندنا والدة عجوزكبيرة
تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قنيب

تتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من نديها عليه
وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلتين ما فيهما قطرة
لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: «قد قتل المسلمون
اصحابك» ، قال: «ما هو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس
تلقني المسلمين كلهم» .

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على
الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فرحلوا
عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الواقعة بالافرنج انه كان في عسكر
حماة اخوان كربيان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا
عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافرنج وقتلوا قطعوا رؤوسهم
وشدوها في سموط خيلهم ، وقطع عناز رأسا وشده في
سموطه ، فراه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: «يا عناز ، اي شيء
هذا الرأس معك؟» قال: «سبحان الله لما جرى بيني وبينه حتى
قتله» ، قالوا له: «يا رجل ، هذا رأس أخيك بسدر!» فنظره
وتأمله ، فإذا هو رأس أخيه ، فاستحيى من الناس وخرج من
حماة ، فما ندري اين قصد ولا عنا سمعنا له خبرا ، وكان أخوه
بدر قتل في تلك الواقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب
السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقال له همام
الحاج التقى هو ورجل من الاسماعيلية ، لما عملوا على حصن
شيزر ، في رواق في دار عمي ، رحمه الله ، وفي يد الاسماعيلي
سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه
همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض
فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في

بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان ، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيف فضربته في وسط ساعده ، والسيف في يده قبضته ونصله لاصق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيف وقطع الساعد من نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر قم السيف في حد السيف ، فراه صانع عندنا فقال: « انا أخرج هذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كما هو ، فهو أحسن ما فيه » وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيف خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جامع فسأغار الفرنج علينا ، فلبس الوالد كزاغنده وخرج من داره ليركب ، فما وجد حصانه ، فوقف ساعة ينتظره ، فوصل جامع الركابي بالحصان ، وقد ابطأ ، فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا (١٠) كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده . فكان رحمه الله يقوم به وبأولاده بعد تلك الضربة ، وكان السيف يسمى الجامعي باسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمرون صاحب حصن أبو قبيس صعدوا اليه الحصن وهونائم أوثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيما ، فقام من فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربه افتخار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا من ان يصل اليه بسكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بتلك الضربة ، وصار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

واتانا الخبر إلى شيزر . فذفنتنا من هنا بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كذافي يحكني ، وما أصل اليه » ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضوع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن (١٠٢) قد انكسر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطارى بين أصابعه ويدفنه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لابل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط أقدمه .

وذلك أن أنطاكية كانت لـشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ، إن مت قبلك كانت أنطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتواثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، أقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل أنطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا . وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم وبخل في الخمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين الرويس إلى أنطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء ، كسر بعض الفرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون وبلاطدس (١٠٣) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغديكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرص لاتابك طغديكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه ، بس لايسبوا ولا يقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما أسر روبرت ، وأتابك طغديكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفزعه فيزيدينا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما رآه مقبلا قام شمر أنيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبتة ، فذفأ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار ذفأته إليك تفزعه لعله يزيدينا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما أحسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهما الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بك الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه ، فأحسننا إليه . فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطعية سامحنا بها . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .

كل ذلك وأمة عجوز يقال لها بركة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الأفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لا يرونها ذلك الأمر العظيم .

وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بركة ، وإن لم يكن موضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاهما علي يتبين ولا يشرب الخمر ، فقال لوالدي يوماً « والله ، يا أمير ، ما استحل أكل من الديوان ولا أكل إلا من كسب بركة » ، وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكبلاً في ضيعة للوالد ، رحمه الله ، وهو رجل يقال له بقية بن الاصير .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما ندوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش ، فوقفت عنه وتهيبه ، ثم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً ، وأنا اسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته ، وإذا بها بركة مكشوفة الرأس قد دفشت شعرها وهي راكبة قسبة تصهل بين المقابر وتجول ، قلت : « ويحك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا ؟ » قالت : « أسحر » قلت : « قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلية بأمور جرت للنساء في الواقعة التي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابن عمي سنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربى ولدتى ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورح لا تقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه - يقول ذلك لعمته ونساء عمه - فكل منهم اعطاه شيئاً ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زربية وخونة ومعه سيف وترس ، فلما رآه أيقن بالموت ، فوضع الخونة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « أخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بدس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمها الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدوبين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خحك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق اجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري اطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يا بني ، اجلستها على الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخت وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فأخذت سيفا وخرجت إلى القتال ، ومازالت كذلك حتى صعنا وتكاثرنا عليهم .

وما ينكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الايام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفا بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصدقور والفهود والكلاب الزغارية ما لا يكاد يجتمع عند غيره ، ويركب في أربعين فارسا من اولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص ، وله بشيزر متصيدان : يوما يركب إلى غربي البلد الى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير ، ويوما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الاسد » ، فسلمت قبل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الاسد ، وركبت ومعني رمحي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطربني شوطا جيدا ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جائع ، وكلمنا ندونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد الى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخاليه ثيابه ورائاته وعاد الى الجبل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم حدرت حصاني عليه فطعنته نفذت الرمح فيه وتركته في جانبه ، فتقلب الى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الاسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمه الله واقفيرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبضرون ما يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد وبخنا البلد العشاء ، واذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة - فما شككت أنها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلقيتها وقبلت يديها فقالت لي بغيظ وغضب : « يا بني ، ايش يملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بذفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفورا ؟ » قلت « يا ستي ، إنما اخاطر بذفسي في هذا ومثله لا تقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا » ، فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحى المسلمين من الدين والذمة والصوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ، من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعود » ، قالت : « يا بني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا والله ، ما اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الريداء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى

خدمة والذي بعد ما قتل خالف بن ملاعب قال : « نهضنا يوما وأرسلنا عليا عبد بن أبي الريداء بكرة يدبب لنا (١٠٤) ، فجاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولا غيرها ، قال : « والله ، إنني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبان ينفضان معارفهما ، فأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يدبب لنا ، فنام ومادى إلا أخذه تركي من سرية أترك ناهضه وقالوا : « أي شيء أنت ؟ » قال : « أنا رجل صعلوك قد أكريت جملي لرجل من التجار في القافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى ادلكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين أيديهم إلى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين ، فخرجنا عليهم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه أخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي صاحب كفرطاب ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امرأة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج تذكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فذفنت أحضرت نسيبا لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء قتلاه ، واحتملا بجميع مالها .

وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .

وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه ، فسألته عنهما فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصادفنا قوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلتة فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى رمنية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفسامية ، فتأهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذناك بغير سور ، فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين ووالدي رحمه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياع في البلد ، وخرج الناس فقتلوههم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهاائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة بنت بوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوههم .

ووصل عمالي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوههم في ظاهر البلد ، فصارت

- ٥٦٨٣ -

الخيـل تعثر في الليل في القتلـى ، ولا يدرون بماذا تعثر ، حتى ترجـل أحدهم وأبصر القتلـى في الظلام ، فها لهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس .

وكانت غنـيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم الله ، جذس ملعون لا يـألفون لغير جذسهم ، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره : « انخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعلمي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غنمنا من الافرنج غنـيمة قد نفذت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الأمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلّت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك الى سروج ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشد ، فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترقيم من مرخم كان يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجته الوالد بامرأة من قـوم صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح بافامية عند الافرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، قاله تعالى يطهر الدنيا منهم .

(طبائع الافرنج و اخلاقهم)

سبحان الخالق الباري ، إذا خبر الانسان أمور الافرنج سبىح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلان بن فلان فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأدس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : « يا أخي ، أنا سأتر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابذك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجعت كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواجه إلى بلاد الافرنج ، فقلت : « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وماتركته يخرج معي حتى استحلقتني أني أردته إليها » ، قال : « وأمك تعيش ؟ » قلت : « نعم » قال : « لا تخالفها »

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة (١٠٥) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى ! » قال : « أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس ليخنة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس : « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ » قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارساً قوياً وقاساً قاطعاً » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلمهم الثوم والخردل ، فزاد بها الذشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعي الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشير صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبته خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فراه رجل أفرنجي فساله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي ببينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟ » فحلف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيته بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق ورببه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فذفعه وأزال ما كان يشكوه .

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين
قد تبدلوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت
المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله
الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم
اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما
فكبرت

ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي
إلى الشرق وقال : « كذا صل ! » فتبادر قوم من الداوية أخذوه
أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغتلهم وعاد هجم علي
ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل ! » ، فعاد
الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب
وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير
الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة ! » فخرجت فكنت أعجب من
ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعده وما لحقه من نظر الصلاة إلى
القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين النين ، رحمه الله ،
وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟ » قال :
« نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه
السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله
عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي
هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ،
والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه
خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار

رجل يقال له معز، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيه (١٠٦) من هذا الخمر . من اراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش فقال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟ » قال : « كنت تعبانا دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » ، قال : « الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » قال : « وحق بيني ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم يذكرون على من يشد في وسطه المنزر في الحمام ، فمد يده ف جذب منزري من وسطي رماه ، فرأني ، وأنا قريب عهد بخلق عانتي ، فقال : « سالم ، فتقربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحق بيني اعمل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه (١٠٧) فقال : « سالم ، بحق بينك اعمل للداما » - والداما بلسانهم الست - يعني امرأته ، وقال للدام : « قل للداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلق ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والألفة من سوء الاحدثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمام : « معنا امرأة » ، فلما خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد أن يسأل عنها ، فمضى ، وأنا أراه ، رفع ذيلها وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلما رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب انفه ، فمات الفارس . فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سارية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة ، وهم

يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقتها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : « هو دال الحرامية على الضيعة » ، فهرب . فذفد المالك فقبض أولاده ، فعاد إليه وقال : « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أنني دالت الحرامية على القرية » ، فقال المالك لصاحب القرية المقطع : « أحضر من يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فأخذه ، وقال له : « تبارز » اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلي و يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي الذفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند (١٠٨) وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة •

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، وذفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، واعبى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد فوق وقع ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبتة في الوقت حبلا وجروه شذقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى

- ٥٦٩٠ -

خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الأفرنج . جالسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكثفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتية ، فإن كان برياً غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكملوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الأمير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتاجه ، وقال لبعض غلمانه : « تمضي به إلى برهان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقرئ هذا القرآن ، وشيئاً من الفقه » ، فقال له ذلك الأعمى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « وما ظننت بي » قال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الأفرنج قوم قد تلبدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبى العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه .

فمن ذلك أننى نذنت صاحباً إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبينى وبينه صداقة ، وهونا فذا الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوماً : « قد دعاني صديق لي من الأفرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الأفرنج ، وقد اعتقى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورأيت متوقفاً عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الأفرنج ، ولي طبابخات مصريات ما أكل إلا من طبخهن . ولا يدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محتزر وانصرفنا .

- ٥٦٩١ -

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر
بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت
بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرأني ، فجاء فقال لتلك المرأة :
« ما لك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتل أخني عرس وكان هذا
عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال :
« هذا رجل برجاسي - اي تاجر - لا يقاتل ولا يحضر القتال ،
وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان
تأثير تلك المؤكلة خلاصي من القتل » .

من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا الذسوان •

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانته رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « يا صندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟ » قال : « يا مولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » - يعني مولاه - فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله يا كذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له لأولو ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعها بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعتة هناك لنا عورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين (١٠٩) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا . « الافرنج ! » فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أنني اطعن واحدا منهم وأخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان : « تقدمونا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم لؤلؤ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب لؤلؤ؟ » قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار (١١٠) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الفرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامراته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفاً - كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات (١١١) لم يشقه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقده في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوق الصائح من الشمال من جانب الفرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج ! » فعبرت المخاض وقتلت للناس : « لا بأس عليكم ، أنا دونكم ! » ، ثم طلعت أركض إلى راييه القراقطه ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني اليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن إقائه فقامت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الفرنج فعادوا إلى شيزر منهزمين ، وتقدمهم الأمير سوار ، رحمه الله .

- ٥٦٩٤ -

فسبيل الرجل المحارب يتدفق عدة حصانه ، فان أيسر الأشياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بما تجري به الاقدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصياها ، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الجبل بالبزة ، ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبل للتخليص من البزة والوقوف على الذبيح ، فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بـغلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجر ، وأنا في يدي قنطرة
مستقبل الموضع إذا خرجت طعننها ، فصاح الغلام : « اليكم قد خرجت ! » فطعننها أخطأتها لأن الضبعة رقيقة الحجم ، فصاح الغلام « عندي ضبعة أخرى ! » فخرجت في إثرها ، فقامت وقفت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعالية قدر قامتين انظر ما يعمل اصحابنا النين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني (١١٢) رمتني من باب المغارة إلى القرارة التي تحته فكانت تكسرنني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يوما على باب دار والدي ، رحمه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيا من خدام الدار ، فانهزم منه وجاء تعلق بـثوبي ، فلحقه وهو ماسك بـثوبي فلطمه ، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها فوقع في بـزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء ، فاصفر وارتمع ووقع مغشياً عليه ، فحمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائباً ، يقال له أبو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل ، فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتمع ، فاذا فصد غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاه ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك أنه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت أصابعه وانتنت رجله ، فقال له الجرائحي : « مالرجلك إلا القطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده مذشارا وجعل يذشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه ، فاذا هو أفاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه ، وداوها فبرأت .

وكان ، رحمه الله ، من أجلد الرجال وأقواهم ، فكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبتة ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على ذلك الحال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لا يستطيع رجل يشابهه ولا يقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوماً من الايام ، وهو وبذو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضلة نبيذ ومأكل تتقضون علي بالحضور لذشب » ، فاجتمعوا عنده ، فجالس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟ » يشير إلى قوته ، قالوا : « لا

والله ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، أنفذوا إلى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت يا أبا الحسن ، وأنفذوا أحضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلاً محترماً ، فتعالى من خلق الخلق أطواراً ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلاً من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلاً في الحصن استسقى فشق بطنه فبرئ ، وعاد صحيحاً كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجلاً من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء - يعني قدرين - وما زال الماء يفيض منه حتى ضمر جوفي ، فخيطلته وداويت الجرح فبرأ ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه .

والأفقد رأيت من استشفى وقصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الأجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة زفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك أو أفرنج أقول له : « يامولاي ، أمرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو » ، فيقول : « يا بني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن أخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تدش

والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث ، وهو إذا ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ، رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما إلا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ، فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد جرى في الجسر » فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا (١١٢) إلى الجسر ، وكان بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فنفذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها إلى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لا يعبر إليها إلا من جسر معقود بالحجر والكلس لا يصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من أقامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السبي والنهب إلى أقامية وملكوا الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا ، قالق الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، ففرق منهم جماعة كثيرة ، كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر ، وأوصلت أنا وأولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر اليهم من بكرة . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم
-وتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم ونذفنها الى
شيزر ؟ » ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم
كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم ليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم
دمهم •

وغنم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزريات والسيفوف
والقنطاريات والخوذ والكلسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحي
الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح
معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟ » قال : « اعزلت لك حصانا
بعده وزربيته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي
العدة وأعطاه الحصان وقال : « أي شيء بيدك ؟ » قال : « يامولاي ،
تقابضت أنا والافرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميته واكمت وجهه
وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرا
الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تدفعني » ، وأظهر
لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت
اسمها رفول قد سباهها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل
من لقيه: « سبيت رفول ! » فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا
في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا
السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد
رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي أخذها ففرقت ، وعلق
ثوبها في شجرة صفاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في
الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لابقوة
ولا بعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتاك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية (١١٤) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق . فتقدمت وقت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء بخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو البخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم أن لنا كمينا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتاك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا ندوا من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا وإذا هو أتاك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأذكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين : « عن أمرك أخذ هؤلاء الذين قد وصلوا ، وأعبر إلى خيل دمشق الواقعة مقابلنا ألقعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟ » .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخيل كانوا قلعونا . وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفرطاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيرون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لانتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج النين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يامـولاي ، ترى ما فعل - يعني - تخلف عنك وما سار معك اللقاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فاتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟ » قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟ » ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كنا ، وفارسين كنا ، وفارسين كنا ، وفارسا كنا يكشفون الطرق ، وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لفلان

لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصلي » ، فما سلمنا إلا والغلّام يركض ، قال : « هذه الرجالة ، وعلى رؤوسهم شقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهل علينا نلبس كزأغندقتنا ، فاذا رايناهم رميناهم برؤوس الخيل ، وطعنناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سبعين رجلا بالقسي والذشاب .

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فظننت أن النين في الوادي من أصحابنا فلاحى الضياع قد فزعوا خلفهم ، والنين في سفح الجبل هم الحرامية ، فجذبت سيفي وحملت على النين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بأخر روحه ، فلما صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم دشابته في فوقه ليضربني . فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعتت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستنفذهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفارقهم حتى أعود » وتوارى عنا ، فرجعت إلى النين في الوادي وقد علمت أنهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمنتين كانتا معهم عليهما خام أيضا ، وطلعوا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل .

وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستنفره .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو ابن تلّيل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا إلى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تغنايل إلى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل إليهم ؟ » قلت : « لا تفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الأفرنج ، فقال آخر : « إلى ما ندور على الجبل ، نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رأنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد إليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا إليهم ، وجاءوا يقودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانيهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تقرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التفرير في الاقدام فما هو للزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبتة همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواء ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصنه عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهاها ، فيعتريه الزممع وتغير اللون لذلك ، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

ولقد حضرت حصار حصن الصور (١١٥) مع ملك الامراء أتابك زنكي ، رحمه الله - وقد تقدم شيء من ذكره - وكان للأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخية ، وذلك بعد كسرتة على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « يا جماعة الجرخية ، يقول لكم أتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لا قطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن المجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية أتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب أتابك إليه فأخذ مفاتيحه فنفذها الى حسام الدين تمرتايش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعى الجرخية ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنوبهم ، فاسترخت أيديهم وتلفت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارب الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية (١١٦) وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطا ووكل به الامراء بالذوبة ، فركب إليه أتابك يوما والذوبة للامير ابي بكر الديبسي وما معه أهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لابي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عدة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الديبسي وخلع عليه وجعله من جملة جناريته .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني - يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله - والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولا يخافني - يعني صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله -

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول أتابك ، وذلك أنا زحفنا يوما إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوجل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « مات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى أحضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك وبخل إلى حمص ؟ » قال : « والله ، يامولاي ، ما أعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعذله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو متبه بنسب ضربت

رقيبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقال غلام له من خافه : « يهرب واحد يؤخذ الذي كان جانبه تضرب رقيبته اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجاري العادة ووسطوه ، وما له ننب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد ، واتابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صلاح الدين بالسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجنناه قد تعلق في جبال كوهستان ، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ، ونزلنا عليه طلوع الشمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خام ؟ » قلنا : « أي وقت هذا للبيع والشراء ؟ » ، قالت : « نريد الخام نكفذكُم به ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقايبين يبخلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجال الذين فيه من الفلاحين ، فزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقّب الخراسانية برجا فوق وقع وعليه اثنان . أما الواحد فمات وأما الآخر فأخذ أصحابنا وجأؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ، وهذا رجل مسلم لا تتقلاذ اثمه » ، قال : « وسطوه حتى يسلموا الحصن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجاء الى الباب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبياننا نصارى ويهود .

فحضرت عجوز كربية ، فقالت لذلك الناطور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ، قال : قتل ، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟ » قال :

وسطه الامير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطننة المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لأجل الامير » قالت : « وأي شيء بقي الامير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلها » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشبيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال : « أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم يا شيخ تقدم » فتقدم ، حتى جلس بين يديه ، فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينه مشدوبة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته ، فبقيت في يده مثل البرجم (١١٧) فقال له ذلك الشيخ : « يا مولاي ، بأي شيء استوجبت ان تفعل بي هذا الفعل ؟ » ، قال : « بعضيائك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للامير قفجاق يقال له الكرخيني (١١٨) . أخذناه فوجدوا فيه خزانة ملأى بثياب خام مخططة صدقة لفقراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصاري واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . قاله سبحانه يتجاوز عنه . أقف من هذا الفضل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فيما يشيب ذكره المولود (١١٩)

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرأ منه خلق كثير من أصحابنا ومايجسر أحد يدخل اليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف : « أدخل اليه » فدخل اليه ، فما أمهله الباطني ان ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « أدخل اليه » فدخل اليه ، فضربه

الباطني فجرحه وخرج كما خرج صاحبه ، فقال ابـن عمي : « يارئس جـواد أئـذل الـه » فقـال له الباطني : « يـامـؤاـجر (١٢٠) أنت لئش ماتئذل ؟ تـداـذل الـه الناس وأنت واقف ، ائذل حتئ تبصر » فئذل الـه الرئئس جـواد فقتله ، وهذا الجواد حكـم في الذقاف ، رجل شجاع ذقف .

وماـمر الـه الـه اعوام قـلـلـة حتئ رأئته بدمشق سنة أربع وثلاثئ وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعئر والتبن ، وقد كبر حتئ صار كالشن البالي يعجز عن دفع الفأر عن علفه ، فما بال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمره ، عئـما صار الـه آخر أمره ، وما حال من حاله طول عمره .

ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغلفه الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعئ ، وأبلاني مر الـه والسئئ ، صرت كجواد العلاف ، لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالارض ، وبذل من الكبر بعضئ في بعض ، حتئسئ أنكرت نـفـسئ ، وتـدـسـرت على أمئ ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحئاة الـه مـدى
قد كنت أهواه تمنئت الرـدا

لم يبق طول العمر منئ منة

القئ بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قوائ وخانئ الذقتان
من بصري وسمئئ حئئ شارفت المـدا

فاذا نهضت حسبـت أنئ حامل
جبلا وأمئئ ان مشئئ مقئدا

- ٥٧٠٨ -

وأدب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لين المهاد مسهدا
قلقا كأنني افترشت الجلمدا

والمرء ينكس في الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا (١٢١)

وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل
تقصيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهري كيف عوبني
بعد المشيب سوى عاداتي الأول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر
وأي حال على الأيام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمنت
زكيتها باقتداح البيض في القل

همي منازل الأقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

أمضي على الهول من ليل وأهجم من
سيل وأقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغابة المكسال مضجعها
لى الحشايا وراء السجف والكل

- ٥٧٠٩ -

قد كنت أعفن من طول الذواء كما
يصدى المهند طول اللبث في الخلال

أروح بعد دروع الحرب في حال
من الد ببيقي فبؤسا لي وللحال

وما الرفاهة من رامي ولا أربي
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست أرضى بلوغ المجد في رفه ولا
العلى دون حطم البيض والاسل (١٢٢)

وكننت أظن أن الزمان لا يبلى جديده ، ولا يهي شديده ، وأنى اذا
عدت الى الشام وجدت به أيامى كعهدي ، وماغيرها الزمان
بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب
اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، وذفته هم اقضت
ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت
القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن
ركوب اخطار الحروب ، لا يذقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر
يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت
مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من
القتال ، صاح انسان من جانب الحصن : « الرجال ! » وعندي
جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي
صاح ، فقلنا : « مالك ؟ » فقال : « حس الرجال هاهنا » فجئنا الى
اصطبل خال مظلّم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما
سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو
على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة ، ولانذك أنه ميت لا يتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت أحرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ، ولانذك أنه ميت كان المسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسا ، فاندخل رأسه ليحقق السماع ، فجذبه واحد منهم وضربه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قد مات ، فقضى الله سبحانه ان خيطت تلك الجراح في رقبتة وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو ان الأفرنج ، لعنهم الله ، اغاروا علينا ثلث الليل الآخر ، فركبنا نريد نتبعهم ، فمنعنا عمي عز الدين ، رحمه الله من اتباعهم وقال : « هذه مكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجاله خلفهم ما علمنا بهم ، فوقع الأفرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكالناس ، وأما الأوسط فما وجهه كوجه الناس ، فلما ندوا منا وإذا الوسطاني منهم قد ضربه أفرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى انفيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فنزل البلد وخاط الجرائحي وجهه وداواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى ماكان عليه الى أن مات على فراشه ، كان يبيع الدواب ويسمى ابن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقدمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروح - وأنا من الاجل في حصن حصين - الى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت

- ٥٧١١ -

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحة
داء » فاعقت النجاة من تلك الأهوال ، وما هو أصعب من القتل
والقتال ، وكان الهلاك في كنة الجيش ، أسهل من تكاليف
العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب
الذات ، وشاب كدر الزكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

إذا كتبت بخطي جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (١٢٣)

ضعفت القوة وهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني
التعمير بين الأنام ، وإلى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى
أصبحت كما قلت :

تناستني الآجال حتى كأني
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون مئة
كأني إذا رمت القيام كسير

- ٥٧١٢ -

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها
علي إذا رمت السجود عسير

وقد اندرتني هذه الحال أنني
ننت رحلة مني وحان مسير (١٢٤)

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى
أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من
خدمتهم ، وريدت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف
الهرم ، لا يقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ،
لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمسول
شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأوطان
والترربة ، الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبرا لا سير
على قدمي ، والظمان ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبه مولانا
الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام
والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قانع عبدة الصلبان ، رافع علم
العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن
أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقاءه ، وأيدهم بماضي
سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله ، كما أضفى لهم من
الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامرهم
ونواهيهم ، وحكم صوارمه في أعناق أعاليه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض
لامال لدي ولأهل فاستنقذني من أنياب الذوائب برأيه
الجميل ، وحملني الى باب العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر
ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من
علاو سني ، فغمرني برغائب الرغائب ، وانهبني من
أنعامه أهني المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ما أسلفت
سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كانه

- ٥٧١٣ -

شاهده ورآه ، فعطاياه تطرقني وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا
محتسب قاعد، فأنا من انعامه كل يوم في مزيد ، واكرام كـتـكـرمـة
الأهـل ، وأنا أقـل العبيد ، أمني جميل رأيه حـسـبـا
الحادثات ، وأخلف لي انعامه ماسلبه الزمان بالذكريات
المجذفات ، وأفاض علي من ذوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته
مايعجز الاعناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجو
نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها
العباد ، وأحيي ببركاتها البلاد ، والسلطان الذي أحيى سنة
الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي
لاينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذي لاينقطع من تتابع
الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع ، ومن
انعامه في ربيع مريع ، ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم
المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغانم ، ومن دولته القاهرة في ظل
وارف ، وفي صعود متتابع أنف في أثر سالف ، وماتعاقب الليل
والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان

وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد

سلوني فاني سميع مجيب (١٢٥)

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله
اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

ذكت ونوادر

الباب الثاني

ذكّت ونوادر

(وما بكم من نعمة فمن الله) (١٢٦)
فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف إخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بإخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد (١٢٧) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي (١٢٨) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي انك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوقف المرأة وهي تـسـظـن أنه يـمـسـح بقوله ، فقال : لا تـطـلـبي ، لا أمضي معك الا أن تأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه . »

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « إذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني إلى الصحراء ويطلع إنسان على الرابية التي تشرف على المقابر ، وينادي : يا عبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلوا ما أمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه . والناس قد بهتوا لا يكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا إذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في أثره ، فقاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود إلى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرت به - وهو - وبالقرب من منزلي - الوفاة ، فقال : « كنت أشتي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلي عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها مديدة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، إنما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما : « يا شيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزاً ولا تشرب ماء وأنت صائم أبدا ؟» قال : « صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك ، فطويت ثلاثاً وقلت : اجعل ما أكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث ، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء ، فألفت النفس ذلك ، وسكنت إليه فاستمررت على ماأنا عليه .»

وكان بعض أكابر حصن كيفا قديماً عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له ، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال : « قد جئت مودعاً » قلت : « والزاوية التي قـــــــدد أعدت لك والبستان ؟ » قال : « يا أخي ، مالي حاجة فيهما ، ولا أقيم » وودعني ومضى ، رحمه الله ، وذلك سنة سبعين وخمس مائة .

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماسة في التأريخ المتقدم ، أن رجلاً كان يعمل في بستان لـمحمد بن مسعر ، رحمه الله ، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة ، فقال : « سمعت الساعة عجباً ! » قالوا : « وما هو ؟ » قال : « مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه ، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما ، فقلت : « ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولـمحمد ابن مسعر نصفه بـالمالك » فقال : « أحسب العام ؟ » قلت : « نعم » قال : « البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه » فخرجوا في اثره ليستفهموا منه قرأوه على بعد لايمكنهم لحاقه ، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال .

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال : « زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين ، رحمه الله ، مسجد صندوبياء بظاهر الأنبار على الفرات الغربي ، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد أمير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفاً حليته حديد لا يدري أنه أمير المؤمنين إلا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير : « ويحك ! ادع لأمير المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يذفع ، قل له : ما كان من المرض الذي كان في وجهه ، فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الأكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن أتردد إلى هذا المسجد من الأنبار ، فلقيني إنسان فقال : لو كنت تتردد إلى فلان - يعني مقدم الأنبار - كما تتردد إلى هذا المسجد لاستدعي لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فذمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول : ما هذه الخضرة ؟ - يعني خضرة في الأرض - فشكوت إليه ما بي ، فاعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة إلى جانبي وقد زال ما كان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق تم قال لي : تحدث معه وأبصر ما يلتمسه واكتب به توقيعاً وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال : « أنا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعذونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم أقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه مافيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين - صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

- ٥٧٢٠ -

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمسة مائة
عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجه بزرگ (١٢٩) رحمه
الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال : « من أين
الشيخ ؟ » قال : « من غربة » قال : « ألك حاجة ؟ » قال : « أنا رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك
شاه » قال : « يا شيخ ، أي شيء هذا الحديث ؟ » قال : « إن
أوصلتني إليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لأزول حتى اجتمع به
وأبلغه مامعي » فدخل خواجه بزرگ على السلطان فأعلمه بما قاله
الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا
ومشطا وقال له : « أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لا أقدر على
جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني
ماجهزهن به ، فذمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه
بمعاونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى
النائم فقال لي : « أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ما تجهز به
بناتك ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ، فقال : امض إلى فلان
- وسماه - فمر ملك شاه - يعني السلطان - وقل له : قال لك
رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت : يا رسول
الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له؟ قال : قل له بعلامة أنك كل
ليلة عند الذوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان
فقال : هذه علامة صحيحة ، وما أطلع عليها غير الله تبارك
وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند الذوم ، وأنا
أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته وأجرزل عطيته
وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك
المقريء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله
المقريء ببغداد ، إذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب
رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : أيش كان من خبر
الصبية ؟ قال : « يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني
أهلي دافعا يشترون به سمنا وعسلا يحذكونها به فلم أقدر

عليه ، فبت مهموما ، فرأت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لاتغتم ولا تحزن ، واذا كان غدا فادخل علي علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : يا أبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيخا لم يعرفه فقال : من أين لك يا أبا بكر هذا ؟ فقال يذنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ماخطبك يا شيخ ؟ فقال الشيخ : ان ابا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهويقول : لاتغتم ولا تحزن ، إذا كان غدا فادخل علي علي ابن عيسى وأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ماكان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يا غلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كمة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفا قال : «كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي(١٣٠)ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : يا عبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا

صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة ويبست
رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين
الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره
فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تــــداووا
هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله، ثم اخذوا مسمارا فاحموه
ثم كوووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ما تقدر على
دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي بينارين وحمارا ، فبقي الحمار
عندي نحدوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي
حمارا آخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى
سؤالي ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في
الخنوق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ما احس فيها بما
يكون ، فقال : ما ارميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين
رحمه الله قد جاءني فربني اليه - وكان الذي قاله من رمي
مزاحا - فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .
فبقيت على ما أنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن
رجلا وقف علي : وقال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن
أبي طالب ، فقممت ووقفت ، فأنبهت امرأتي وقلت : ويحك ، قد
أبصرت كذا وكذا ، فقالت : ها أنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال
ما كان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير
علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورأني قد زال ماراه
بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن
معمر العلوي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة
قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي
ابن محمد الانصاري الفرضي ، المعروف بقاضي المارستان ، أنه
قال : « لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من الأولو
فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا يذشده في

- ٥٧٢٣ -

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين ديناراً ، فسألته علامة ماضاع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ما جعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، وما دفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال : « ولم تدفعه الا لله عز وجل ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال : « اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضي .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأتخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر ، فوقع في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناء ذلك المدينة (١٣١) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانيء الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتا في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي : « يا أبا بكر ما رأيك في التزويج ؟ » قلت : « ياسيدي انا لا أطيق ذفقة نفسي ، فكيف أطيق الذفقة على زوجة ؟ » قال : « أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك » فقلت : « الأمر لك » فقال : « يا ولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى - ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول : « رضيت - وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

- ٥٧٢٤ -

فلما كان بعد أيام قال لي : « تهيأ لدخول بيتك ، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجميل والآلات ، ثم أجالست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقامت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت من الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هربي ، فقلت : « إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت » فتبسم وقال : يا ولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ما عليها من الحلي والجوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقتني الفكر فيه ، فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال : « جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على ما فعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصوله اليه ، فقال لي : « فيم تفكر ؟ » فقلت : « في العقد الفلاني ، فاني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقدا يشبهه ، فصاح وقَالَ : « أنت الذي رددت علي العقد ؟ » قلت : « أنا ذاك » فقال : « أبشر ، فإن الله قد غفر لي ولك ، فاني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقد سلمت اليك مالي وولدي وما ظن أجلي الا وقد قرب » ثم أوصى الي ومات بعد ميعة قريبة رحمه الله .

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال : « دعانا شاهنشاه بحلب - وهو زوج أخته - فلما اجتمعنا عنده ذهبنا الى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعينا ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال : « أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبتة سلعة كبيرة ، فقلنا : « وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى آخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال : « ما عندي شيء فلاجئناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا نأكله على المنقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحننا وكسرنا البيض وأفرغنا ما فيه في الصحن ، ووضعنا المنقل على المنقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبتة السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشرّب بعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال : والله ما أفعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنظر من بالباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضره فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يامولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتني نهبت ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبتيه ، فقلت : « أي شيء أنهيهما ؟ » قال : « الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النقي » فسبحان القادر المبلي المعافي .

وكان عندنا في شيزراخوان اسم الأكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في

تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من احياء العرب ، فضيفوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه ابنه رفيقه الذي في جانبه وقال له : « انا نائم او مستيقظ ؟ » قال : « مستيقظ لو كنت نائما ماتت » قال : « تلك القيلة قد نهدت وما بقي لها اثر » فنظر فانها قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب الذين اضاافوهم أي شيء اطعموهم ، قالوا : « نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا اخذنا فراخ غربان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غربان واطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تدفعه ولا أثرت فيه ، فقال : « تلك الافراخ التي اكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان تدفعها » .

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بسن بطلان (١٣٢) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صفة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فراه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له : « يا ولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولا بقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ما كان به من المرض ، وضمير جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال : « ما انت الذي حصرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبته ، وقلت لك : مالي فيك حيلة ؟ » قال : « بلى » قال : « فيماذا تداويت حتى زال ما كان بك ؟ » قال : « والله ما تداويت بشيء ، أنا رجل صعلوك مالي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في بنين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان : « بقي من الخل شيء ؟ » قال : « نعم » قال : « امش معي ارني »

البن الذي فيه الخل « فمشى بين يديه الى بيته أووقفه على بن
الخل ، فافرج ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين
قد تهراتا فقال له : « يا بني ماكان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى
تبرا الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجلا
أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم
منه اذا تكلم ، فقال له : « ما صنعتك ؟ » قال : « أنا
مغربل » فقال : « أحضر لي نصفا رطبا لخل
حاذق » فأحضره ، فقال : « اشربه » ، فشربه وجلس لحظة فذرعه
القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخل ، فأنفتح حلقه واستوى
كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه : « لاتداوا بهذا الدواء أحدا
فقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغريلة تراب ماكان
يخرجه الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن
نصر بن منذر فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن
منذر ، رحمه الله ، وضع وهو صبي صغير ، فأقلق ذلك أباه
وأشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له : « ابصر ماقد
ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال : « اريد خمس مائة دينار حتى
أداويه وأذهب هذا عنه » ، فقال له جدي : « لو كنت داويت عليا
ماكنت رضيت لك بخمسة مائة دينار » فلما رأى الغضب من
جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضلك ، ماقلت
ماقلت الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشباب ، واذا
أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه هما ، ولا يقول لك سواي : « أنا
أداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقها
برد في رأسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة
والمناويل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال : « حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبين ، فهو يعود اليه بأسره » ، فحصلت له الكافور ، ثم أصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فألقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفذ شعرها من ذلك الكافور ، ونهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر مايقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جالوسي ارتعلت وقام شعر بدني وتجمعت ، فأحضرت الشيخ أبا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ماأجد ، فقال : « احضروا لي بطيخة هندي » فـأحضرت فـكسرها وقال لي : « كل منها ما استطعت » قلت : « يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف أكل هذه مع بردها ؟ » قال : « كل كما أقول لك » فأكلت : فما انتهى أكلها منها حتى عرقت وزال ماكنت أجده من البرد ، فقال لي : « الذي كان بك من غلبة الصفراء ماكان من برد حقيقي » .

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب « كتاب الذوم والأحلام » من ذكر الذوم والأحلام ، وما قيل فيه وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعته فيه المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه هاهنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سيد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منذر ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والذي مجد الدين أبا

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربيتني ذلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامه قوامه . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وآيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت : « لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ما قالوا : « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله . فدخلت اليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلا للصلوات ، فقلت : « ما هذا يا أمي؟ » قالت : « يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت « اريني الصابونة التي تغسلين بها » . فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تظن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائح ، قلت : « يا أمي ، هذه جبنه ! ما هي صابونة » ، فنظرتها وقالت : « صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا » . فتبارك الله اصدق القائلين : « ومن نعمه نذكسه في الخلق » (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارئ اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في السستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه اكرم مسؤول ، واقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .

الباب الثالث

أخبار الصيد

الباب الثالث

أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

والله مني جانب لا اضيعه

وللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب ، وما شاهدته من الوقعات والمصافات
والأخطار ما حضرني ذكره ولم يذسنيه الزمان ومره ، فإن العمر
طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والنسيان من ارث متقادم من أبينا
آدم ، عليه السلام .

وأنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص
والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر ، ومن ذلك ما
حضرته مع ملك الأمراء أتاك زنكي بن أق سذقر ، رحمه الله
تعالى ، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج
الملوك ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بمصر ، ومن ذلك ما
حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتاك
زنكي ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر
الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق ، رحمه الله .

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوفا
بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يغرمه عليه
لفرجته ، فإنه كان نزهته ، فليس له شغل سوى الحرب وجهاد

الأفرنج ونسخ كتاب الله ، عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه ، وهو رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن ، فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تعسي الذكر» ، فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه .

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وكان له الجوارح الكثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيد وتخطيء ما تخطيء ، ووراءهم الشواهين الكوهية (١٢٤) على أيدي البازدارية ، فإذا اصطادت البزة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت دشت خيز (١٣٥) ، فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد ، فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة .

وشاهدته يوما ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باننجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق ، فطار ذكر دراج فأرسله عليه فأخذه ونزل ، فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار ، فلما إرتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبته .

ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات ، إذا اجتمعت الحلاقة واجتمع فيه الوحش لا يقدر أحد يخل الحلاقة ، وإذا خرج من الوحش شيء رموه ، وكان من أرمى الناس ، فكان إذا دنا منه الغزال رماه ، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح ، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ، ينفذه لي مع غلام من غلمانه وأنا معه .

وشاهدته وقد اجتمعت الحلاقة ونحن في أرض نصيبين على الهرماس (١٣٦) ، وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش إلى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد ف ضربوا منها شيئا

كثيرا ، واجتمع في الحلاقة نيب فوثب في وسطها على غزال أخذه وبرك عليه ، فقتل وهو عليه .

وشاهدته يوما ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: «هاهنا ضبعة نائمة!» فسار ونحن معه الى واد هناك ، والضبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي ، فترجل أتاك ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بذشابة رماها إلى أسفل الوادي ، ونزلوا جاؤوا بها إلى بين يديه وهي ميتة .

ورأيت أيضا بظاهر سنجار وقد جلوا أرنب ، فأمر فاستدارت الخيل حولها ، وأمر غلاما خلفه يحمل الوشق كما يحمل الفهد ، فتقدم أرسله على الأرنب ، فدخلت بين قوائم الخيل ، وما تمكن منها ، وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد .

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمير الوحش واليحامير ، فرأيت يوما وقد خرجنا الى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم ، فتصيدنا كثيرا من اليحامير ، وضربت الخيام حلقة ونزلنا ، فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائما في العشب فأخذ في وسط الخيام .

ورأيت ونحن عائدون رجلا قد رأى سنجابا في شجرة ، فأعلم به شهاب الدين ، فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثا فما أصابه . فتركه وسار شبه المغتاذ الذي لم يصبه ، فرأيت رجلا من الأتراك جاء رماه فوسط الذشابة فيه ، فاسترخت يده وبقي متعلقا برجليه والذشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقع ، ولو كانت تلك الذشابة في ابن آدم كان مات لوقته ، فسبحان خالق الخلق .

ورأيت الصيد بمصر كان الحافظ ليين الله عبد المجيد أبي الميمون ، رحمه الله ، جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية ، فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة

يومين ، وأكثرهم رجالة على ايديهم الجوارح ، فكنت اركب يوم خروجهم الى الصيد لا تفرج بنظر صيدهم ، فمضى الزمام الى الحافظ وقال له: «إن الضيف فلانا يخرج معنا ؟» كأنه يستطلع أمره في ذلك ، فقال :«اخرج معه يتفرج على الجوارح ».

فخرجنا يوما ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت أحمر(١٣٧) العينين ، فرأينا كراكي ، فقال له الزمام: «تقدم ارم عليها الباز الأحمر العينين» ، فتقدم رماه ، وطارت الكراكي فلحق منها واحدا على بعد منا فحطه ، فقلت للغلام لي على حصان جيد : « ادفع الحصان اليه وانزل اغرز منقار الكركي في الارض واكثفه واترك رجله تحت رجلك الى أن نصلك » فمضى وعمل ما قلت له ، ووصل البازيار ذبح الكركي واشبع الباز .

فلما بخل الزمام حدث الحافظ بما جرى ، وما قتلته للغلام ، وقال : «يا مولانا ، حديثه حديث صياد» ، قال :« وأي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟»

وكان معهم صدقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائفة ، فاذا رأى البلاشوب الصدق دار وارتفع ، والصدق يدور في جانب آخر حتى يرتفع على البلاشوب ، ثم ينقلب عليه يأخذه .

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البج مثل النحام يصيدونها أيضا ، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد ، والغزال عندهم قليل ، بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل وهي بقر صدق قرونها مثل قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدوا عظيما ، وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس . لها أنياب طوال في فكها الاسفل ، وفي فكها الاعلى خروق لانيابها تخرج رؤوسها من تحت عينيها . وصياحها مثل صياح الخنزير . ولا تبرح في بركة فيها ماء وتاكل الخبز والحشيش والشعير(١٣٨) .

وكننت قد مضيت مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك ، فرأينا رجلا من الجذوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبه صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته ، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها ، وقال لنا ذلك الجذوي : « ان الباز عندنا اذا كان نذيه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي » . فعدنا نذب ذلك الباز فكان كذلك .

فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من المالك فأخذه من ذلك الجذوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين ، فجاء معنا ، فرايته في الطريق يشب الى الغزلان كما يشب الى اللحم ، ووصلنا به إلى دمشق ، فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابن داود ، رحمه الله ، وهناك الحجل والزرخ (١٣٩) كثير والدراج ، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكن الباز منها ، وأكثر صيدهم الأراوي ومعزي الجبل يعملون لها شبابا ويمدونها في الأوبية ويطردون الأراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد ، وكذلك الأرانب .

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرته ونحن بأرض حماة ، وقد جلوا له أربابا ف ضربها بذشابة كسماء وقامت وسبقت الى محجر بخلته ، فركضنا خلفها ، ووقف عليها نور الدين . وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله ، رجلها قد قطعها الذشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصالة فوقع منها بيت الولد ، وسبقت بعد هذا وانحجرت ، فأمر نور الدين بعض الوشاقية نزل وقلع خفافه وبخل خلفها ، فما وصل اليها ، وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه خرنقات « شقة وأطمرهم بالتراب » ، ففعل ، فتحركوا وعاشوا

- ٥٧٣٧ -

وحضرته يوما وقد أرسل كلبه على ثعلب ونحن على قرا حصار
بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب
الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها ، فصارت الكلبة
تعوي ، وذور الدين رحمه الله يضحك ، ثم خلاها وانجحر. فما
قدرنا عليه .

وجاءه يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد
باز ، فقال لنجم الدين أبي طالب علي كرد (١٤٠) رحمه الله «قل
لفلان - يعنيني - يأخذ هذا الباز يلعب به» ، فقال لي ، فقلت
«ما أحسن له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون ، ما
تحسن تصلح الباز؟» قلت: «يا مولاي ، ما كنا نصلحها نحن ، كان
لنا بازيارية وغلمان يصلحونه ويتصيدون بها قدامنا» ، وما أخذت
الباز.

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئا ما اتسع لي الوقت
لذكره مفصلا ، وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وألته
وغيره . وما رأيت مثل صيد والذي ، رحمه الله ، فما أدري كنت
أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحب - وب
محبوب» ، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق ، وأنا أذكر شيئا
من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه

وذلك أن والذي ، رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن
والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل يذسخ كتاب الله تعالى ، فكان
قد نسخ ستا وأربعين ختمة بخطه ، رحمه الله ، منها ختمتان
بالذهب جميع القرآن ، ويركب إلى الصيد يوما ويسـترج
يوما ، وهو صائم الدهر .

ولنا بشيزر متصيدات : متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي
البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في
الازوار من غربي البلد .

وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه الى البلاد لشري البزاة ، حتى أنه انفذ الى القسطنطينية أحضر له منها بزاة ، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة ، فاضطروا الى ان صاروا يطعمون البزاة لحـم السمك ، فأثر ذلك في اجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف ، فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة ، وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فواصل اجنحتها واصطاد بها ، وقرنص بعضها عنده .

وكان اكثر ما يستدعي البزاة ويشاريها من وادي ابن الاحمر بالعلا (١٤١) ، فأحضر قوما من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلي ويسمالخ وحلة عارا (١٤٢) ، وتحدث معهم في ان يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا وعملوا بيوت الصيد ، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخا ومقرنصة وزرارق ، فحملوها الى الوالد وقالوا : « يا مولانا ، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمننا نعرفه لا تجاذب فيه » فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشرة دينارا ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وثمان الباز المقرنص عشرة بنانير ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وانفتح للجبلين أخذ بنانير بغير كلفة ولا تعب ، انما يعمل به بيتا بحجارة ، وعلى قدر خلقاته ، ويغطيه بعيان ويستترها بقش وحشيش ، ويجعل نافذة ، يأخذ طير حمام يجمع رجله على قضيب ويشدها اليه ، ويخرجه من تلك النافذة ، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح اجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه ، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب الى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز ، وهو قابض للطير الحمام ، وأنزله اليه وخيط عينيه ويصبح من الغد يصلنا به ، ويأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين .

فكثرت الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج :
فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر (١٤٣) من كثرتها .

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية ، وعلم قوما من
مماليكه اصلاح البزاة فمهرروا فيها ، وكان يخرج الى الصيد ونحن
أولاد معه في اربعة رجال ، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا ، فإذا
ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا . ويخرج معنا بزاة كثيرة من
العشرة وما حولها ، ومعهم صقاران وفهادان وكلابزيان ، مع
أحدهما كلاب سلوقية ومع الآخر كلاب زغارية ، فيوم خرجوا الى
الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق
الجبل : « تفرقوا ، كل من عليه قراءة يقرأها » ، ونحن أولاد
حفاظ القرآن ، فذفترق نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من
يستدعيننا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ، فإذا أخبرناه يقول : انا
قرأت مائة آية ، أو نحوها ، وكان رحمه الله ، يقرأ القرآن كما
أنزل .

فإذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فتفرق بعضهم مع
البازيارية ، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب بازيارسل
عليه ، ومعهم من مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس
بالصيد ، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال الا
اصطلناه ، وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ، ثم نعود وقد
اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت (١٤٤) في الجبل شربت
واستحمت ، ونعود الى البلد بعد عتمة .

فإذا ركبنا الى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا ، نقع في
الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور
برا من الزور وندخل اليه بالبزاة ، فان طارت دراجة أخذها الباز ،
وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة ، فان أخذها والا خرجت
الى الفهود أرسلوا عليها ، وان قفز غزال خرج الى الفهود أرسلوا

- ٥٧٤٠ -

عليه . فان اخذ والا ارسلوا عليه الصقور ، فما يكاد يفلت منا صيد
الا بفسحة الاجل .

وفي الازوار خنازير كثيرة تخرج ، فنركض عليها ونقتلها فيكون
فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصيد .

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والامر المهم ، لا
يشغل أحد . يحدث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر
الارانب او الطير في اوكارها .

وكان قد صار بينه وبين بني رويال - تروس ولاون الارمن ممن
الصحاب المصيصة وطرسوس وأننة والدروب - مصادقة ومكاتبة
اكبر سببها رغبته في البزاة ، فكان ينفذون له كل سنة عدة من عشرة
بزاة او ماحولها على أيدي رجاله ارمن بازيارية وينفذون الكلاب
الزغارية ، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ، ومن كسوة مصر ،
فكان يجيئنا من عندهم بزاة . ملاح نادرة فاجتمع عندنا في بعض
السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة

دونه وجاءنا من الجبل عدة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما
يلحق بتلك البزاة ، والبازيار غنائم يقول: « ما في هذه البزاة كلها
مثل هذا الباز اليعشور (١٤٥) ما يترك شيئا الا يصيده » ، ونحن
لا نصدق ، ثم اصلح ذلك الباز ، فكان كما ظن فيه من أفره البزاة
وأطيرها وأشطرها ، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما
كان ، وعمر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة ، فكان قد
صار كأنه من أهل البيت يصطاد للخدمة ، لا لما جرت به عادة
الجوارح أن يصيدوا لذفسهم .

وكان مقامه عند الوالد ، رحمه الله ، لا يتركه عند البازيار ، لأن
البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصطاد به . وذلك
الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراده منه ، فكنا نخرج الى

وكان من عجائب هذا الباز ، وعجائبه كثيرة وأنا أنكر منها ما يحضرني ذكره ، فان الأمد قد طال واندستني السنون كثيرا من أحواله ، أن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر واناثها وبيضانيات (١٤٦) من التي تكون بين البقر لتلتقط الذبان من الدار ، وكان يدخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز الى جانبه فلا يطلب شيئا من تلك الطيور ولا يثب اليها ، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها .

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برا من سورها ذقاع كبثار ماء وفيه الطيور ، فيأمر الوالد البازيار وغلما معه يخرجوا الى قريب من تلك الطيور ، ويأخذ اليحشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور وهو شرقي البلد والطيور غربيها ، فاذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخرج منه وينتهي الى الطيور ، فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع ارسل منه مسافة بعيدة .

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدراج ، ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد ، فيقول الوالد: «هات اليحشور» ، فيأخذه وهو شبعان ويتقدم الى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها ، فان اصاد وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفع ، وان لم يصد وقع على بعض أكناف النهر فما نراه ولا ندري أين وقع ، فنخله وندخل إلى البلد ، ويصبح البازيار من سحر يخرج اليه يأخذه ويطلع به إلى الحصن إلى عند الوالد ، رحمه الله ، ويقول له: «يامولاي» قد صدق هذا الصقيع قفاه طول الليل ، وقد أصبح يقط البولاد (١٤٧) فاركب ابصر ايش يعمل اليوم!»

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة الى الوز السمند والأرنب ، وكان البازيار يشتهي ان يصيد به الكراكي والحرجل ما يتركه الوالد ويقول: «الحرجل والكراكي نصيدها

بالصدقور ، ، وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيده سنة من السنين ، حتى أنه كان اذا ارسل واخطأ لا يجيء الى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به ، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد .

واستحم يوما ، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه ، واذا في جانبه سلعة في قد اللوزة ، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال : «يا مولاي ، هذه التي قصرت بالباز وكانت تهلكه» ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة ، وختتم موضعها ، وعاد اليدشور الى الطيور بالسيف والنطع .

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة في ذلك الوقت ينفذ كل سنة يطلب الباز اليدشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوما يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود ، فمات الباز بشيزر .

واتفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة ، وأصبحت يوما وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد ، فسألت «من قد مات؟» قالوا: «بنت لشهاب الدين ، فأردت الخروج خلف الجنازة ، فمادكني شهاب الدين ومنعني ، وخرجوا قبروا الميت في تل صفرون ، فلما عادوا قال لي شهاب الدين : «تدري من هو الميت؟» قلت: «قالوا : ولد لك» ، قال: «لا ، والله ، بل هو الباز اليدشور ، سمعت أنه مات أنفنت أخذته وعملت له تابوتا وجنازة وقبرته ، فانه كان يستحق ذلك »

وكان للوالد ، رحمه الله ، فهدة في الفهود مثل اليدشور في البزاة ، اصطادوها وهي وحشية ، من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها (١٤٨) وكانت تتركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد ، ويقدم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحوا من سنة ، فخرجنا يوما إلى الأزوار ، فدخلت

الخيـل الى الزور وأنا واقف في قم الزور ، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني . فقام من الزور غزال وخرج إلي ، فدفعت حصانا كان تحتي من أجود الخيل أريد أريـه إلى الفهدة ، وعاجله الحصان ندسه بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادته . فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: «خذوا من الصيد ما أردتم» فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه ، ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت ان يقول «قد وقفت» تجدد عدوا او تأخذ الغزال .

وصينا بشيزر الغزال الادمي ، وهو غزال كبير ، فكنا اذا خرجنا بها الى العلاة والارض الشرقية ، وفيها الغزال الابيض ، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها الا تجذبه ترميه ، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الابيض .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ، رحمه الله ، وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد الى باب الدار يحطها وفيها المرفقة ، وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجيء الجارية تربطها الى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار والله ، نحو من عشرين غزال ادمي وابيض وفحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار ، فلا تطلبهم ولا تروعهم ، ولا تزول عن موضعها ، وتدخل الى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت الى الغزلان .

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تدفر ، ورأيتها يوما ، وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها ، وهي تلتلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ، ولا تهر عليها ولا تضر بها .

ورأيتها يوما وقد أثارت من بين يدي الفهاد أرنبين ، وقد لحقت

الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعته الأخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الاولة ، فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب .

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيديويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين ، وكان متولياً دار العلم بطرابلس ، فلما أخذ الأقرنح طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويأخذ الناس النسخ ، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقه ابن الدواب ، أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد ، رحمه الله ، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها .

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً ، دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيديويه» ، و«كتاب الخصائص» لابن جني «وكتاب الإيضاح» لأبي علي الفارسي و«كتاب اللمع» ، و«كتاب الجمل» . فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله» ، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: «قرأتها؟ لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري: خذ جزءاً وافتحه وأقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً» ، فاخذت جزءاً وفتحتته وقرأت منه سطراً ، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمراً عظيماً ما هوفي طاقة البشر .

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث .

وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة ، وهو راكب في رجليه اقدم (١٤٩) وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه ادماهما . وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحس بتألم رجليه - مشغول بما يراه من تسللها الي الغزلان وعدوها وحسن صيدها .

وكان الوالد ، رحمه الله ، محظوظاً من الجوارح النادرة الفارهة ، وذلك انها كانت عنده كثيرة نيندر منها الجارح

الفاره ، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت احمر العينين ، فكان من أفره البزاة ، فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوج مقلد ، رحمه الله ، من مصر - و كان مقامه بها في خدمة الأمر بأحكام الله - يقول: «سمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين ، والأفضل يستخبر المحدث عنه وعن صيده» ، فذهه الوالد ، رحمه الله ، مع بزياره الى الأفضل ، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال: «نعم يا مولاي» ، فقال: «أي شيء يصيد؟» قال: «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد» ، فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية ، ثم عادوا اصطادوه ، فجاءنا كتاب عمي ، رحمه الله ، يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز ، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به ، وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة».

وكنا يوما عند الوالد ، رحمه الله ، وقد جاء انسان من فلاحى معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير ، ما رأيت قط بازا مثله وقال: «يا مولاي ، كنت اصلي للدلم (١٥٠) بالنادوف ، ف ضرب هذا الباز على بله في النادوف ، فأخذته وحملته إليك» ، فأخذه وأحسن إلى الذي أهده ، ووصل الباز يار ريشه وحمله واستجابه ، واذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الأفرنج ، وقرنص في جبل المعرة ، فكان من أفره الجوارح وأشطرها .

وشاهدت يوما وقد خرجنا معه ، رحمه الله ، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه ، فلما بنا منا واذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله ، فدلاه ومسدك سباقيه (١٥١) ورجليه - والشاهين مدلى مذشور الأجنحة ، فلما وصلنا قال: «يا مولاي ، اصطدمت هذا الطير ، وقد جئت به إليك» ، فسلمه الوالد الى الباز يار فأصلحه ، ووصل ما انكسر من ريشه ، ولم يخرج مخبره مثل

منظره ، كان قد أدلفه الصياد بما عمل به ، والشاهين هو الميزان أدنى شيء يعيبه ويفسده ، وكان هذا البازيار صانعا مجودا في اصلاح الشواهين .

وكنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد ، حتى الشباك والفؤوس ، والمجارف والكلاليب لما ينحدر من الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب ، فاذا خرجنا من المدينة اُدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فاذا خرج أحدهما عن القصد تنحج البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو ، ورأيتهم وقد اُدار شاهينا على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج ، فلما اخذ الشاهين طيبته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصة قطعة ، وأخذها ونزل ، فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه ، واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنا بالقرب من النهر .

وقال له يوما غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممكنا يركب معه : « يامولاي ، اشتهيت ابصر الصيد » قال : « قدموا لأحمد فرسا يركبه ويخرج معنا » فخرجنا الى صيد الدراج ، فطار ذكر وتنزى (١٥٢) كما جرت العانة وعلى يد الوالد ، رحمه الله ، اليحشور ، فأرسله عليه فطار مع الأرض الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعا كبيرا ، فقال له أحمد : « يامولاي ، وحياتك كان يتلاهي به حتى أخذه »

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية : كلاب جياذ ذكور وأنثى ، فكانت تتوالد عندها ، وصيدها الطير طبع فيها .

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابزي ، فأرسل بازا على دراجة فبنجت (١٥٣) في حلفاء في جرف النهر ، فأرسلوا الكلاب على الحلفاء لتطير الدراجة ، وذلك

الجروة واقفة على الجرف ، فلما طارت الدراجة وثبتت الجروة خافها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر ، وماتعرف الصيد ولاصادت قط ،

ورأيت كلبا من هذه الزغارية وقد بنجت حجلة في الجبل في بنج صعب وقد نخل اليها الكلب وأبطأ ، ثم سمعنا حشكة في داخل البنج فقال الوالد ، رحمه الله : « في البنج وحش وقد قتل الكلب » ثم بعد ساعة خرج الكلب يجرجر رجل ابن أوى ، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه المينا .

وكان الوالد ، رحمه الله ، سار الى اصبهان الى دركاه السلطان ملك شاه ، رحمه الله ، فحكى لي قال : « لما قضيت اشغالي من عند السلطان وأردت السفر ، أردت استصحب معي جارحا ، اتفرج به في طريقي ، فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج فأخذت صدقورا تصيد الأرناب والحبارى ، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة » .

وكان عنده ، رحمه الله ، من الكلاب السـلـوـقية كلاب جيد ، أرسل يوما الصدقور على الغزلان والأرض مـطـر ثقيلة بالوحل ، وأنا معه صغير على برذون لي ، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين ، وبرذوني لخفتي عليه مستظهر ، وقد صرعت الصدقور والكلاب الغزال ، فقال لي : « يا أسامة الحق الغزال وانزل امسك رجله الى أن نجيء » ففعلت ، ووصل هو رحمه الله ، فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد ، يسمونها الحموية صرعت الغزال ، وهي واقفة ، وإذا قطعة الغزلان التي اصطننا منها قد عادت عابرة علينا ، فأخذ ، رحمه الله ، قلابة الحموية وخرج يهرول بها حتى رأت الغزلان ، وأرسلها عليها اصطادت غزالا آخر .

وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنة وأنه لا يزال صائما

يركض نهاره كله ، وكان لايتصيد الا على حصان او اكيش جواد ، ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب ، ولا يقدر وشاقي ولا صاحب جنيب ولا حامل سلاح يقصر في الركض على الصيد .

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب حصاني ، فلا يركض على الصيد ولا يتبعه ، فيحرد الوالد عليه ، فعل ذلك مرة بعد مرة ، ففعل له الغلام : « يامولاي ، ماينفعك أحد من الحاضرين ، والعياذ بالله ، مثل ابذك هذا ، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه ، إن احتجته وجدته ، وأحسب أنني ماأنا معكم » فما عاد يلومه ولا يذكر عليه كونه مايركض على الصيد .

ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح ، فركب الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد وآخرهم ماأبعد عن البلد ، فتبعتهم خيلنا ، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد ، ووصل الا فرنج الى البلد والوالد قد طلع على تل سكين (١٥٤) يراهم وهم بينه وبين البلد ، ومازال واقفا على التل الى أن انصرفوا عن البلد وعاد الى الصيد .

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر فصرع منها يوما خمسة أو ستة على فرس له دهما تسمى فرس خرجي باسم صاحبها الذي باعها ، كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً ، فطرد آخر اليحامير ، فوقعت يدها في حفرة مما يحفر الخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقوته ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح ، ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب وتسهل حتى قام وجاءه الغلمان أركبوه ، فهذا فعل الخيل العربية .

وخرجت معه ، رحمه الله ، الى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل

غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله ، لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحت برزون ، فرأى ظل تركشه (١٥٥) اجفل منه فرماه وانفلت ، فركضت والله عليه وأنا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى أن ألجأناه الى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا ينزل في داره ، فالبرانين بالوحش اشبه مما هي بالخيول .

حكى لي ، رحمه الله قال : « كنت أخرج الى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرميز رحمه الله - وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية - فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ، ونحن نتصيد حوله ، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا ، فقال يوما : « ياسيدنا أنا جالس على صخرة واذا حجلة قد جاءت وهي تنهذكف وهي معية الى تلك الصخرة التي أنا عليها ، دخلت واذا الباز قد أتى خلفها وهو بعيد منها ، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح : عيذك عيذك ياسيدنا ، وجاء وهو يركض وأنا أقول : اللهم استر عليها ، فقال : ياسيدنا اين الحجلة ؟ قلت : مارأيت شيئاً ، ماجأت الى هاهنا ، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرأها ، فقال : أقول الحجلة هاهنا تقول لا ، وأخذها ياسيدنا كسر رجلها ورمأها الى الباز ، وقلبي يتقطع عليها » .

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله ، اخبر الناس بالصيد ، شاهدته يوماً وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية ، فكنا نخرج نسطاد منها شيئاً كثيراً ، وكانت أرانب صغاراً حمر فشاهدته يوماً وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة (١٥٦) أخذها ، ثم جلى أرنباً عاشرة ، فقال له الوالد ، رحمه الله ، : « دعها تقيموها للكلاب نتفرج عليها » فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب ، فسبقت الأرنب وسلمت ، فقال لؤلؤ : « يامولاي ، لو كنت تركتني طعنتها وأخذتها »

وشاهدت يوما أرنبًا قد ثـورناها وأرسلنا عليها الكلاب ، فأنجحرت في ارض الخبيبة (١٥٧) فدخلت كلبة سوداء خلفها في المجحر ، ثم خرجت في الحال وهي تتعوص (١٥٨) ثم وقعت فماتت ، فما انصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وتهرأت وذاك أنها لسعتها حية في المجحر .

ومن عجيب ما رأيت من صيد البزاة أنني خرجت مع الوالد ، رحمه الله ، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب اياما ، فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء ، فرأينا طيوراً ممرجة في مرج تحت شرف ، فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنض بيت ، فطلع مع الطيور اصاد منها ونزل فما رأينا معه شيئاً من الصيد ، فنزلنا عنده واذا هو قد اصاد زرزور وطبق كفه عليه ، فما جرحه ولا آذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم .

ورأيت من الوز السمنند حمية وشجاعة كحمية الرجال وشجاعتها ، وذلك اننا أرسلنا الصقور على رف وز سمنند وبقنا الطبول فطار ، ولحقت الصقور تعلقت بوزة حططتها من بين الوز ، ونحن بعيد منها ، فصاحت ، فترحل من الوز اليها خمسة ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها ، فلولوا نبادرهم كاذوا خلصوا الوزة وقصوا اجنحة الصقور بمناكيرهم .

وهذا ضد حمية الحباري ، فانها إذا قرب منها الصقر نزلت الى الأرض وكيف دارا استقبلته بذنبها ، فاذا بنا منها سلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطار ، وان اخطأته بما تفعله به اخذها .

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد ، رحمه الله ، أنه كان على يده باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون البلشون (١٥٩) الا أنها أكبر من الكركي ، من طرف جناحها الى طرف جناحها الآخر أربعة عشر شبرا ، فجعل الباز يطلبه ، فأرسله عليه ودق له الطبل ، فطار وبخل فيه الباز أخذه

ووقعاً في الماء ، فكان ذلك سبب سلامة الباز ، والا كان قتله بمذقاره ، فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدته مسك العيمة واطلعها ، فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ويصيح ويطير عنها ، وما عاد يعرض لها ، ولا رأيت بازاً سوى ذلك اصطادها ، فانها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء : « ارى العنقاء تكبر أن تصادا » .

وكان الوالد رحمه الله ، يمضي الى حصن الجسر ، وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياماً ، ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطير الماء واليحمير والغزلان والأرانب ، فمضي يوماً إليه وركبنا الى صيد الدراج ، فأرسل بازاً يحمله ويصلحه مملوك اسمه نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه ، وقد بنج الدراج في حلفاء ، وإذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض ، قلنا : « مالك ؟ » قال : « السبع خرج من الحلفاء التي وقع فيها الدراج فخلت الباز وانهزمت » وإذا السبع ايضاً ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الحلفاء منهزماً الى الغاب .

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن ، وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب ، فيهم من معه قصبه في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت ، ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع ، وفي رأس القصبه خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبه التي فيها الحديد فما يخطئها ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها ، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضة فيه شوكة حديد ، وفي طرفه الآخر خيط مشدود الى يده ، ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة ، وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصدقاف على السمكة حتى يدخل اصابعه في

خواشيم السمكة ، وهي لا تتحرك ولا تنفـر ، ويأخذها
ويطلع ، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزة

وتوالى المطر والهواء علينا أياما ونحن في حصن الجسر ، ثم
أمسك المطر لحظة ، فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد : « البزة
جياع جيدة للصيد ، وقـد طـابت وكف
المطر ، ما تركب ؟ » قال : « بلى » فركبنا فما كان بأكثر من أن
خرجنا الى الصحراء ، وتفتحت أبواب السماء بالمطر ، فقلنا
لغنائم : « أنت زعمت أنها طابت وصحت حتى أخرجتنا في هذا
المطر ! » قال : « ما كان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر ؟ كنت
قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحبة ! »

وكان هذا غنائم صانعا جيدا في اصلاح الشواهين و البزة
خبيرا بالجوارح ، ظريف الحديث طيب العشرة ، قد رأى من
الجوارح ما يعرف وما لا يعرف .

خرجنا يوما الى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا
الجلالي شيئا واذا كركي مطروح على الأرض ، فنزل غلام قلبه واذا
هو ميت وهو حار مابرد بعد ، فراه غنائم قال : « هذا قد اصطاده
الزريق (١٦٠) » .

فتش تحت جناحه واذا جانب الكركي مثقوب وقـد أكل
قلبه ، فقال غنائم « هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق
تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه »

وقضى الله سبحانه أنني صرت الى خدمة اتابك زنكي رحمه
الله ، فجاءه جارح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفون عينية
حمر ، وهو من أحسن الجوارح ، فقالوا : « هذا الزريق » ما بقي
عنده الا أياما قللا وقرض السيور بمنسره وطار .

وخرج الوالد ، رحمه الله ، يوما الى صيد الغزلان ، وأنا معه

صغير فوصل وادي القناطر واذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق ، فأخذهم وكثفهم وسلمهم الى قوم من غلمانه يوصلونهم الى الحبس بشيزر ، فأخذت أنا خشتا من بعضهم ، وسرنا في الصيد ، واذا عانة حمير وحش ، فقلت للوالد : « يا مولاي ما أبصرت حمير الوحش قبــــــــــــل اليوم ، عن أــــــــــــــــركــــــــــــض أبصرهم ، فقال : « افعل » وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل ، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخنته من الحرامية ، فصرت وسط العانة فأفردت منها حمارا وصرت أطلعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئا لضعف يدي وقلة مضاء الحرية ، فــــــــرددت الحــــــــمار حتــــــــى رددتــــــــــــه الى اصحابي ، فأخذوه ، وعجب الوالد ومن معه من عدو تلك الفرس .

ففضى الله سبحانه انني خرجت يوما اتفرج على نهر شيزر وهي تحتني ، ومعني مقررء ينشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة ، فنزلت تحت شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا وكان الى جانب النهر ، فذفرت ووقعت في النهر على جنبها ، وكلما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال ، وكان الغلام صغيرا لا يقدر على تخليصها ، ونحن لانعلم ولاندرى ، فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق ، فقــــــــطعنا شــــــــكالها وأطلعناها ، فماتت ، وما كان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه ، وانما الشكال اهلكها .

وخرج يوما الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد ، وخرج معه أمير يقال له الصمصام ، من أصحاب فخر الملك بن عمار صاحب طراباس على سبيل الخدمة ، وهو رجل قليل الخبرة بالصيد ، فأرسل الوالد بازا على طيور ماء فأخذ منها طيرا ووقع في وسط النهر ، فجعل الصمصام يدق يدا على يد ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، كيف كان خروجي في هذا اليوم ؟ » فقلت له : « يا صمصام ، تخاف على الباز أن يغرق ؟ » قال : « نعم قد غرق بطة هوحتي يقع في الماء ولا يغرق ؟ » فضحكت وقلت : « الساعة يطلع » فأخذ الباز رأس

- ٥٧٥٥ -

الطير وسبح وهو معه حتى طلع به ، فبقي الصمصام يتعجب
من ذلك ويسبح الله سبحانه ، ويحمده على سلامة الباز .

ومنايا الحيوان ، مختلفة الألوان ، قد كان الوالد ، رحمه
الله ، أرسل زرقا ابيض على دراجة ، فوقعت الدراجة في حلفاء
ودخل معها الزرق .

وفي الحلفاء ابن آوى أخذ الزرق قطع رأسه ، وكان من خيار
الجوارح وأفرها .

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوما وبين يدي غلام لي معه
باشق ، فرماه على عصافير ، فأخذ عصفورا ، وجاء الغلام ذبح
العصفور في رجل الباشق ، فذفض الباشق رأسه وتقيأ دما ووقع
ميثا ، والعصفور في تلفه مذبح فسبحان مقدر الآجال .

واجتزت يوما من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت
هناك ، ومعني زر بطانة ، فرأيت عصفورا على حائط أنا واقف
تحتة ، فرميته ببندقية فأخطأته ، وطار العصفور وعيني الى
البندقية ، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في
الحائط فوقعت البندقية على رأسه ، فقتلته ، ووقع بين يدي
فذبحته ، وما كان صيحه عن قصد ولا اعتماد .

وأرسل رحمه الله ، يوما الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير
الشوك ، فأخذها وانفرطت منه ، فجلس على الأرض ، وراحت
الأرنب ، فركضت أنا فرسا دهماء تحتي من جيات الخيل لأرد
الأرنب ، فوقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت علي ، فملات يدي
ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس ، ثم انتقل الباز من
الأرض بعدما أبعدت الأرنب لحقها اصاها فكانه كان قصده اتلاف
فرسي وأنيتي بالوقوع في الشوك .

فأصبحنا يوما في أول يوم من رجب صياما ، فقلت للوالد ، رحمه الله : « أشتهي أخـرج أتشـاغل بـالصيد عن الصيام » قال : « اخرج » فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث مذقذ ، رحمه الله ، ومعنا البزاة الى الأزوار فدخلنا في سوس ، فقام لنا خنزير ذكر فطعنه أخي جرحه وبخل ذلك السوس ، فقال أخي : « الساعة يكربه الجرح ويخرج ، استقبله اطعنه اقتله » قلت : « لاتفعل يضرب فرسك يقتلها » نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زورا آخر ، فالتقاه أخي طعنه في سنامة انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ، وبخل تحت فرس شقراء تحته عشاء محجلة شعلاء ضربها رماها ورمها ، فأما الفرس فاندفسخت فخذها وتلفت ، وأما هو فاندفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمته .

وركضت أنا خلف الخنزير ، فدخل في سوس مخصب وخناث فيه باقورة نائمة ماأراها من ذلك الغاب ، فقام منها ثور في صدر حصاني فندسة ، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه ، وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر ، فوقفت على جرف النهر وزرقتة بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة ، وكسر الرمح فيه ، وسبح إلى ناحية النهر ، فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت في قرية لعمي ، فجاءوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لايقدر يطلع منه ، فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه ، وقلت لركابي لي : « انزل اليه » فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح اليه تمام قتله ، وسحب برجله وأتى به وهو يقول : « عرفسكم الله ببركات صيام رجب ! استفتحناه بنجس الخنازير .

ولو كان الخنزير ظفر مثل الأسد كان اشد بأسا من الأسد ، فلقد رأيت منها خنزيرة قد أقمناها عن جريات لها ، واحد منها يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو في قد جرو القط ، فأخذ الغلام من

تركشه نشابة ومال اليه طعنه بها ، ورفعها في الذشابة ، ففجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب .

وكان من عجائب الصيد أننا كنا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ، ومعنا عشرة بزاة نتصيد بها النهار كله ، والبازيارية مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثة من المماليك ، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور بساية وكلما أرسل البازيار على حجلة وبنجت قد صاحوا : « يا بطرس ! » يعدو اليهم مثل الهجين ، كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه ، فاذا اشبعنا البزاة ورجعنا أخذ بطرس قلاعة وعدا خلف واحد من المماليك ضربة بها ، أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس ، فلا يزال يطارد الغلمان ماكانه كان نهاره كله يعدو من جبل الى جبل .

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها ماتأكل الطيور ، ولاتأكل منها الا رؤوسها وأرجلها التي ماعليها لحم ، والعظام التي قد أكلت البزاة لحمها .

وكان للوالد ، رحمه الله ، كلبة سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لاتتحرك ولاتزول حتى عمشت عيناها ، وكان الوالد ، رحمه الله ، يحدد على الغلمان ويقول : « قد اعميتم هذه الكلبة ! » ولاينتهون عنها .

وأهدى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبة عروفا ترسل تحت الصقور على الغزلان فكنا نرى منها العجب .

وصيد الصقور بالترتيب ، يرسل في الأول المقدم فيعلق بانن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضرب غزالا آخر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صقر منها

على غزال ، فيأخذ المقدم انن غزال ويفرده من الغزلان ، فترجع الصقور جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها ، وهذه الكلبة تحت الصقور لاتلتفت الى شيء من الغزلان الا ماعليه الصقور ، فيدفع ان يظهر العقاب فتحل الصقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة ، ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور الى الدعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ، رحمهما الله ، مودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل ، فنفذ اليه يوما يقول له : « خرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم » وذلك ان الغزلان عندهم في ارض القلعة كثيرة ، وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ماقد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث ، يقدشونها كما يقدش الحطب والعشب .

والدراج عندهم كثير في الأزوار على الفرات ، واذا شق جوف الدراجة وأزيل ما فيه وحشي بالشعر لاتتغير رائحتها أياما كثيرة ، ورأيت يوما دراجة قد شق جوفها وأخرجت قانصتها ، وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر .

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قد بلعتها صحيحة دونها بيسير ، ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف

والظلم من شيم النفوس
فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم .

الخاتمة

حضر ذكر الصيد وقد شهدته سبعين سنة من عمري غير ممكن
ولامستطاع ، وتضييع الأوقات في الخرافات ، من أعظم عوارض
الآفات ، وأنا استغفر الله تعالى من تضييع الصبابة الباقية من
العمر ، في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر ، وهو تبارك وتعالى
يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية، فهو الكريم الذي لا يخيب
أمله ، ولا يرد سائله .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين ، وسلم تسليما ، وحسبنا الله
ونعم الوكيل وكان في آخر الكتاب مآثله :

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس على مولاي جدي،
الأمير الأجل العالم الفاضل الصدر الكامل،عضد الدين،جليس الملوك
والسلطين،حجة العرب،خالصة أمير المؤمنين،أدام الله سعادته ،
وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطر خطة الكريم
به،وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وستمائة،صحيح
ذلك،وكتب جده مرهف بن اسامة بن منقذ ، حامدا ومصليا .

الملاحق

أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين

(من وفيات الأعيان لأبن خلكان)

ورأيت في مكان آخر أنه أبو منصور علي بن اسحق ، عرف بابن السلار وزير الظافر العبيدي صاحب مصر ورأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كرديا زرزاريا وكان تربية القصر بالقاهرة ، وتقلب به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره الى أن تولى الوزارة للظافر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم وجدت في مكان آخر أن الظافر المذكور استوزن نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال في أول ولايته وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ، ثم تغلب عليه العادل بن السلار وعدى ابن مصال الى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الاسكندرية ، طالبها للوزارة ، وبخل ابن السلار القاهرة في الخامس عشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الأمور ، ونعت بالعادل أمير الجيوش ، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم ، وجرد العادل العساكر للاقائه فكسره بدلاص من الوجه القبلي وأخذ رأسه وبخل به القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر العادل الى أن قتل ، وهذا القول أصح من الأول والله اعلم .

وكان ابن مصال من اهل لك ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وهي بليدة عند برقة من أعمالها، وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة وبذلك تقدما ، وكانت وزارة ابن مصال نحوا من خمسين يوما وكان ابن السلار شهما مقداما مائلا الى ارباب العقل

والصلاح ، عمر بالقاهرة مساجد ، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس
مسجدا مذكورا إليه ، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما
وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر
الاسكندرية المحروس ، وأقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا
احتفل به وزاد في إكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها
إليه ، وهي معروفة إلى الآن ولم أر بالاسكندرية مدرسة للاشافعيين
سواها ، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة ، وسطوة قاطعة
يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات ، ومما يحكي عنه أنه قبل
وزارته بزمان وهو يومئذ من أحاد الأجناد ، دخل يوما على الموفق
أبي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان ، فشكا إليه
حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية
بالغربية ، فلما أطل عليه الكلام قال له أبو الكرم : والله إن كلامك
ما يدخل في أنني فقد قد عليه ذلك فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه
فخاف منه واستتر مدة ، فنادى عيه في البلد وهدر دم من يخفيه .
فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، فعرف
فأخذ وحمل إلى العادل فأمر بإحضار لوح من خشب ومسمار طويل
فألقى على جنبه وطرح اللوح تحت أنفه ، ثم ضرب المسمار في الآن
الأخرى ، فصار كلما صرخ يقول له دخل كلامي في أنك بعد أم
لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الآن التي على اللوح ، ثم
عطف المسمار على اللوح ، ويقال أنه شذقه بعد ذلك .

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس
ابن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو
صبي ومعه أمه واسمها بلارة ، فتزوجها العادل المذكور ، وأقامت
عنده زمانا ، ورزق عباس ولدا سماه نصرا ، فكان عند جدته في دار
العادل والعادل يحذو عليه ويعزه ، ثم إن العادل جهز عباسا إلى
جهة الشام بسبب الجهاد وكان معه اسامة بن مذكذ ، المذكور في
حرف الهمزة فلما وصل إلى بلبيس ، وهو مقدم الجيش الذي سار
في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وماهي عليه ، وكونه
يفارقها ويتوجه للقضاء العدو ، ويقاسي الذكال فأشار عليه

اسامة ، على ما قيل ، بقتل العادل ويستقل هو بالوزارة ويستريح من النكال وتقرر بينهما أن ولده نصرا يباشر ذلك اذا رقد العادل فإنه معه في الدار ، ولا يذكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصرا قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة رحمه الله تعالى ، وتفصيل الواقعة يطول ، وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة، وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القس ، فلما أخذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان ، كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق ، وجد فيه طائفة من عسكر سقمان ، فضمهم الأفضل إليه ، وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور ، فأخذ الأفضل إليه ، وتقديم عنده وسماه سيف الدولة ، وأكرم ولده هذا وجعل في صبيان الحجر ، ومعنى صبيان الحجر عندهم أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة ، فاذا قيل له عن شغل ما يحتاج أن يتوقف فيه ، وذلك على مثال الداوية والاسبتار ، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للإمارة فترجع العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالجزم والهيبة وترك المخالطة فأمره الحافظ ، وولاه الاسكندرية وكان يعرف برأس البغل، ثم تقدم وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر اسماعيل ابن الحافظ صاحب مصر، وقد ذكرته في ترجمته .

عباس بن أبي الفتح الصنهاجي

(من كتاب الملقى للمقريزي)

عباس بن أبي الفتح يحيى بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز
ابن بقليل بن الجهمري بن الصنهاجي :

قيم حفيدا علي بن أبي بلالة بن أبي الفتح
إلى الإسكندرية لما أخرجه أخوه أبو الجهمري علي بن يحيى بن تميم
من إفريقية فأمر الخليفة الإمبراطور الحاكم بالله بإكرامه فلم تطل أيام
حياته إلا بالإسكندرية ومات .

فتزوجت بلالة بعد وفاته بعلي بن السلار الملقب بالعدل
الوزير ، فتسعد بها وعلا شأنه ، وشيخ عباس فقدمه الخليفة
الحافظ لابن أبي الفتح وجعله صاحب الباب .

فلما مات الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين
 وخمسمائة واستخلف من بعده ابنه أبو المنصور اسماعيل الظاهر
 بأمر الله ، خلع على نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال وأقامه
 في الوزارة ، فأسخط ذلك المظفر علي بن السلار ، وهو يومئذ والي
 الغربية ، وسار فرافقه عباس وتوجه معه إلى القاهرة واستقر في
 وزارة الظاهر ، فخرج عباس بعسكر إلى محاربة الوزير نجم الدين
 سليمان ابن مصال إلى دلاص ، وقاتل ابن مصال حتى هزم من معه
 وحرق جامع دلاص ، وقد امتنع به قوم من لواته وكثير من السودان
 حتى أتلّفهم ، وأسر ابن مصال وقتله وحمل رأسه ، ودخل إلى
 القاهرة ، وولده نصر بن عباس يحمل الرأس على رمح .

وأقام بالقاهرة ونعت بـ « ركن الاسلام » إلى أن قوي الأفرنج

ونازلوا عسقلان في البر والبحر ، فجهز العادل ابن السلار
العساكر ، وسببها مع ركن الاسلام عباس ، فخرج ومعه من
الأمراء بلهم والضغام واسامة بن منذر في عدة .

وكان اسامة خصيصا بعباس ، فحسن له ، وقد نزلوا على
بليس ، ان يعمل في أخذ الوزارة من العادل ، بأن يبعث ابنه ناصر
الدين نصر بن عباس الى القاهرة ليتحدث مع الظافر في ذلك ، فوافق
لهذا غرض عباس ، وبعث ابنه ، فكان من قتله العادل ما قد ذكر في
ترجمته .

فكتب الظافر الى عباس فحضر من بليس وتقلد وزارة مصر بعد
زوج أمه والأترك قد استودشوا من قتل ابن السلار ، فلم يجد
سبيلا الى تلافي أمرهم ، وخرجوا يدا واحدة الى دمشق ، وبطل
مسير العساكر الى عسقلان ، فسر الفرنج ما وقع بالقاهرة وقالوا
لأهل عسقلان ، وهم على حصارهم ، ان سلطانكم قد قتل
ابنه ، فأنتم لمن تقاتلون ؟ ففترت عزائمهم عن القتال الى أن أخذ
الفرنج عسقلان .

واستبد عباس بأمر الدولة وضمبط الأمور وأكرم
الأجناد ، وأحسن الى الأمراء الى أن قتل ابنه نصر بن عباس
الظافر ، فصعد العباس الى القصر يوم الخميس على العادة وجلس
في مقطع الوزارة ينتظر الخليفة الظافر حتى طال جلوسه فاستدعى
بمقلح زمام القصر وقال له : ان كان لولانا شغل عدنا اليه في
الغد .

فمضى الزمام وهو حائر ، وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل
بالقصة ، فما شكوا في قتل الظافر ، فعاد اليه ، وكان من اقامته
عيسى بن الظافر ونعته بالفائز ، ما ذكر في خبره ، فظن أن الأمر قد
استقام له ، فأتاه مالم يحتسبه ، وأخذ أهل القصر في أعمال الجيلة
غليه ، فاختلف عليه الأمراء والسودان ونافروه لما اشتهر من قتل

- ٥٧٦٧ -

ابنه نصر بن عباس الخليفة الظافر ، وهاجت الفتنة وصارت
العساكر أحزابا ، ولبسوا سلاحهم ، فخرج عباس لقتالهم في يوم
الاثنين عاشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكسرهم
وقتل منهم جماعة .

فبعثت عمة الفائز إلى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهذي
تستدعيه لأخذ ثأر أخيها الظافر ، فحشد وسار من منية بني
خصيب ، فبعث إليه عباس عسكريا في عاشر ربيع الآخر نزل على
أطفيح فخالف عرب أطفيح على عباس ولحقوا بطلائع وهو على
أبويط ، فسار بهم إلى دهشور (١٦١) فاضطرب عباس وانحل
عنه الناس يريدون لمقاء طلائع ، وناكده أهل القاهرة بحيث أنه مر
في يوم فالقي عليه من طاق في الشارع هاوون ، ورمي مرة بقدر قد
ملئت بطعام حار ، فقال : « ما بقي بعد هذا من شيء » وهم بالفرار
فوجد أبواب القاهرة مغلقة .

ثم دبر أمره وخرج ومعه ابنه نصر ، وأسامة بن منقذ ، ومعهم
جميع أموالهم ، فأخذ طلائع القاهرة ، ونهبت دور عباس وولده
وأتباعه .

وسار عباس على طريق أيلة ، فبعثت عمة الفائز إلى الفرنج
بعسقلان تعلمهم الحال وتبذل لهم المال ، فخرجوا إلى عباس
وقاتلوه ، ففر عنه أسامة بن منقذ ومعه أصحابه ، وبقي يقاتل حتى
قتل يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين
وخمسمائة ، واسر ابنه نصر وحمل إلى القاهرة .

وحكي أن عباسا جلس للمنادمة ، فلما أخذت الكأس منه
قال : تبأ لمن يعتقد أمامة هؤلاء ، ويقول أنه لا يكون إمام إلا
بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولا علم له بذلك حتى يوصي ، وقد
استعرضت أقاربه كالغنم أهانة وذبحا ، وقدمت هذا الملقب

- ٥٧٦٨ -

بالفائز ، وعمره خمس سنين ، وعلى يدينا ذهبـت دولتهمـم
بالمغرب ، وكذلك تذهب بالشرق ، فقتله الله وقتل ولده الظافر .

الحواشي والهوامش

حواشي المداخل إلى كتاب الاعتبار

- ١ - لعله أراد صريح القواني مسلم بن الوليد .
- ٢ - ليسا في ديوانه المطبوع
- ٣ - ليست في ديوانه .
- ٤ - ديوان أسامة بن منقذ - ط . القاهرة من ١٥٠ .
- ٥ - ديوانه من ٩٤
- ٦ - ديوانه من ٣٠٢
- ٧ - ليست في ديوانه .
- ٨ - ليست في ديوانه .
- ٩ - ديوانه من ١٥٣
- ١٠ - ديوانه من ١٥٣
- ١١ - ليس في ديوانه .
- ١٢ - ديوانه من ٣٥٦ .
- ١٣ - ديوانه من ٢٥٣ .
- ١٤ - ديوانه من ٢٥٧ .
- ١٥ - ديوانه من ٢٥٥ .
- ١٦ - ديوانه من ٢٢٨ .
- ١٧ - ديوانه من ١٥٣ مع فوارق .
- ١٨ - ليست في ديوانه .
- ١٩ - ديوانه من ٢٤٧ .
- ٢٠ - ديوان أبي فراس - ط . دمشق ١٩٨٧ من ٣٢٥ .
- ٢١ - ديوانه من ١١٠ .
- ٢٢ - ديوانه من ١٠٩ - ١١٠ .
- ٢٣ - ليسا في ديوانه
- ٢٤ - ديوانه من ٥٥ .
- ٢٥ - ديوانه من ٢٦٥ .
- ٢٦ - ديوانه من ٢٥٠ .
- ٢٧ - ديوانه من ٢٤١ .
- ٢٨ - ديوانه من ٣١
- ٢٩ - ديوانه من ٧١
- ٣٠ - الحسين بن علي المغربي ، من أشهر رجالات السياسة والأدب في مصر والشام والجزيرة والعراق في القرن الخامس ، توفي سنة ١٨ هـ . له ترجمة جيدة في بقية الطلب لابن العديم .
- ٣١ - ديوانه من ٣ . مع فوارق .
- ٣٢ - ديوانه من ٤٦ - ٤٧ مع زيادات كثيرة .

- ٥٧٧١ -

- ٣٢ - ديوانه من ١٢ - ١٣ مع زيادات كبيرة .
٣٤ - ديوانه من ١٥٨ .
٣٥ - ديوانه من ١٣٠ .
٣٦ - ديوانه من ٣٠ .
٣٧ - ديوانه من ٢٤ .
٣٨ - ديوانه من ٩٠ مع فوارق .
٣٩ - ديوانه من ٧٤ مع فوارق .
٤٠ - ديوانه من ٣٠١ .
٤١ - ديوانه من ٢١ .
٤٢ - ديوانه من ٣٠٢ .
٤٣ - ديوانه من ٩٥ مع فوارق .
٤٤ - ديوانه من ٢١٢ .
٤٥ - ديوانه من ٢٣٦ .
٤٦ - ديوانه من ١٠٦ .
٤٧ - ديوانه من ٢٧٩ مع فوارق .
٤٨ - ديوانه من ٣٠١ - ٣٠٢ .
٤٩ - في هامش الاصل : هذا النصف يعينه لابي تمام - وأوله : لا تتكري عطل الكريم من
الغنى انظر ديوان ابي تمام - ط . دار المعارف ٣٠ من ٧٧ .
٥٠ - هو حصن زياد أو خربوط ، ورد ذكره في نصوص موسوعة أكثر من مرة .
٥١ - المخراق : السيف .
٥٢ - في هامش الاصل :
كانما أنا قوس وهي لي وتر
ارمي بها عن بنات الهم والهرم

٥٣ - في هامش الاصل : اخذه من قول الصابي :

والعمر مثل الكأس ير

سب في أواخره القنى

- ٥٤ - ديوانه من ٥٠ مع فوارق .
٥٥ - ديوانه من ٢٥٩ .
٥٦ - زهير بن ابي سلمى ، وابن سنان هو هرم بن سنان الذي أكثر زهير من منحه .
٥٧ - مطموس بالاصل .
٥٨ - جاءت اسرة ال الصوفي العربية من حلب إلى دمشق وتسلم زعماء منها رئاسة دمشق
وبخلوا احيانا بصراعات مع حكام الدولة البورية ، التي كان معين اذو من آخر المتحكمين فيها .
٥٩ - ضمن أسامة أجزاء من قصيدة المتنبى المشهورة التي قالها في عتاب سيف الدولة :
واحر قلباه من قلبه شيم
ومن بجسمي وحالي عنه سقم .
٦٠ - كان طمان من رجالات زنكي وقد هرب منه والتجأ إلى دمشق .
٦١ - وردت الابيات العشرة الاولى من هذه القصيدة في الديوان المطبوع في باب الفزل
من ٤٠ - ٤١ .
وردت الابيات الباقية في باب المكاتبات من ١٤٦ - ١٤٨ ، كل ذلك مع فوارق .
٦٢ - وزير صلاح الدين ، عبد الرحيم بن علي اليسانى .

- ٥٧٧٢ -

- ٦٣ - تشورا : خجلا .
٦٤ - انظر ما تمثل به الصعابي سعد بن معاذ يوم الخندق .
لبيث قليلا يدرك الهيجا حمل
ما أحسن الموت إن حان الأجل
انظر سيرة ابن هشام ، تحقيقي ط . بيروت ١٩٩٢ ص ٧٠٩ .
٦٥ - اللقاضي وهو لقب لشاعر كبير اسمه عويم بن شبيب ، له ترجمة في الاغانى - ط . دار
الكتب - ٢٤ ص ١٧ - ٥٠ ، انظر بيته :
إننا محيوك فاسلم أيها الطلل
وإن بليت وإن طالت بك الطيل
ص ٢٠
٦٦ - في شرح نيوان زهير . ط . القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٨٠ ، غنا ، .
٦٧ - تقدم ذكر هؤلاء جميعا في الجزء الاول من المسجل ، ومن أجل هذا انظره في نيوان ابن
حيوس ج ٢ ص ٦٠٦ مع بعض الفوارق .
٦٨ - ديوانه ص ١١٤ مع فوارق كبيرة .
٦٩ - الدر باب طائر ، ودرج حبيب ببغداد قرب نهر معلى .
٧٠ - تاريخ دمشق لابن التلاني ص ١٨٤ مع فوارق ببعض الالفاظ .
٧١ - نيوان ابن حيوس . ١٠ ص ٢٠ - ٢١ .
٧٢ - من اسماء الراية : الصليب .
٧٣ - حاجب بن زراره ومن كسرى قوسه حتى يعطيه طعاما يفيث به قبيلته .
٧٤ - مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور . ٧ ص ٢٧٦ .
٧٥ - نسبة الى حصن كيفا . مدينة من ديار بكر (الانساب للسمعاني) .
٧٦ - لم اجده بهذا اللفظ ، انظر كنز العمال : ٣ / ٥٩١٢ .
٧٧ - ليس بالانساب ، أو التمهيد للسمعاني .
٧٨ - مازال يحمل هذا الاسم على طريق دمشق خان ارنية ، يبعد عن خان ارنية / ١٥ كم
وعلى مسافة ٤ كم منه معسكر الطلائع .
٧٩ - تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٣٥٢ - ظ - ٣٥٣ و .
٨٠ - لم يصلنا .
٨١ - اي صريع الفواني مسلم بن الوليد .
٨٢ - طلائع بن رزيق وزير في القاهرة لمدة سبع سنوات (١١٥٤ - ١١٦١ م) وكان من اصل
أرمني . انظر النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٤٥ .
٨٣ - هدمت شيزر بفعل الزلزلة وقتل أهله بها أيام نور الدين سنة ١١٧٠ م .
٨٤ - الخريبة - قسم شعراء الشام : ١ / ٤٩٨ - ٤٩٩ .
٨٥ - كتاب الاعتبار ط . برنستون ١٩٣ : ١٣٤ .
٨٦ - ليس بديوانه . انظر الخريبة : ١ / ٥٢٩ .
٨٧ - ديوانه ط . القاهرة : ٥٥ .
٨٨ - الخريبة : ٣ / ٥٠٢ - ٥٠٣ .
٨٩ - ليس في ديوانه . وطبع أيضا في القاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات لعبد
السلام هارون .
٩٠ - طبع كتاب العصا بحماه وطبع أيضا بالقاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات
لعبد السلام هارون .

- ٥٧٧٣ -

- ٩١ - الخريفة : ٥٠٠ .
- ٩٢ - المصدر نفسه : ١ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .
- ٩٣ - ديوانه : ١٠٩ .
- ٩٤ - الخريفة : ١ / ٥٠١ / ٥٠٢ .
- ٩٥ - ديوانه : ٢٠٩ ، وبداية البيت الاول فيه « أنا تا » .
- ٩٦ - ليست هذه الابيات في ديوانه .
- ٩٧ - ديوانه : ١١٨ .
- ٩٩ - ليست في ديوانه
- ١٠٠ - ديوانه : ٢٧٧ .
- ١٠١ - التكملة لوفيات النقلة : ١ / ١٥٨ - ١ (٥١)
- ١٠٢ - الفرارة الوعاء - الكيس - الكبير للحبوب وغير ذلك .
- ١٠٣ - أي اسامة .

حواشي كتاب الاعتبار

- ١ - هو أبو بكر بن بشر الجزري .
- ٢ - لعل اسمه كان « بندكت » .
- ٣ - صلاح الدين محمد اليافعي صاحب زنكي وكان لذلك واليه على حماه .
- ٤ - فيما تقدم من نصوص تاريخ دمشق لابن القلاسي موضح لا وضاع هذه المدينة وذلك بالإضافة للدراسة المتقدمة عن الدولة البورية في المخل .
- ٥ - ديوان إسامة بن منقذ - ط . بيروت عالم الكتب ٢١٩ - ٢٢٠ .
- ٦ - مرجح أن هذه النسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المخل .
- ٧ - الاسكندرية والبحيرة .
- ٨ - أي المسؤول عن ادارة القصور الخلافية .
- ٩ - في شرقي مصر .
- ١٠ - من قبائل الشمال الافريقي كانت في اطراف مصر .
- ١١ - بلدة في الصعيد . معجم البلدان .
- ١٢ - هو شجر السدر . معجم اسماء النباتات .
- ١٣ - أي منخل أو نمليز .
- ١٤ - أي اتخذ ديوانا سجل فيه مرتزقة من الجند .
- ١٥ - نسبة الى ببيق ، وهي بلدة قرب دمياط .
- ١٦ - الإسفلاطون إمام من الكتان ، موسى . والمستجب من فراء السنجاب ، والدمياطى حشيرة أو كتان مقصّب اشتهرت به دمياط .
- ١٧ - واحة بين فلسطين ومصر .
- ١٨ - فارسية تعني صمغ الشجر ، ولعلها كانت من معادن شابه الكهرمان .
- ١٩ - حسمى جبال بين بين العقبة وسيناء . معجم البلدان .
- ٢٠ - الشتر قسار هو الجزء الذي يقبض عليه الراكب من اللجام ، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي لمحمد أحمد دهان - ط : دمشق ١٩٩٠ .
- ٢١ - في منطقة البتراء ، وهناك دراسات أثرية مفاهمة تنهب إلى أن أصحاب الكهف عاشوا في هذه المنطقة لا في افسوس - جنوب تركيا ، كما هو رائج .
- ٢٢ - أي أطولهم .
- ٢٣ - بلدة على بعد ٢٦ كم شمال غربي الخليل . معجم بلدان فلسطين .
- ٢٤ - قامت يبني على رابية تبعد عن البحر مسافة ٧ كم ، وكانت محطة للقطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
- ٢٥ - لعباس ترجمة جينة انتزعتها من الملاحق للمقريزي والحقتها في آخر الاعتبار .
- ٢٦ - لعلها من انواع البغال السفرية أو التتقل .
- ٢٧ - كانت ولايته منية أبي الخطيب ، وهي مدينة كبيرة على شاطئ النيل في الصعيد الانسى . معجم البلدان .
- ٢٨ - من احياء القاهرة في شرقها ، نالت اسمها من سكانها من بركة .
- ٢٩ - اشتغيب .
- ٣٠ - أي شاة .
- ٣١ - أي وعدا الا نؤتيهم إنا عدنا .
- ٣٢ - المويلح قرية وقعت إلى الشمال الشرقي من يافا . معجم بلدان فلسطين .

- ٥٧٧٥ -

٢٣ - المرجح هنا الرهوان ، وهو البرزون اللين الظهر في السير ، من الرهو وهو السير السهل .

٣٤ - انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي . ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٣٩٨ ، ٤٢٧ .

٣٥ - حيث المكتبة الظاهرية حاليا في دمشق .

٣٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي ص ٤٢٧ .

٣٧ - ركن الدين مسعود الاول (٥١٠ - ٥٥١ هـ / ١١٦ - ١١٥ م) .

٣٨ - افاد من هذه المكتبة وليم رئيس اساقفة صبور لدى كتابته تاريخ اعمال امراء الشرق ، ثم تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار . وقد ترجمته الى العربية .

٣٩ - لعل هذا كان عام ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي ص ٣٣٥ .

٤٠ - اورد اسامة هذه الحكاية في كتابه لباب الادب - ط . القاهرة ١٩٨٧ ص ١٨٧ - ١٨٨

وهي غريبة فالمداول أن إصابة الاشر بالشر تمت أثناء فتوح الشام لدى قطع الدروب إلى اسية الصغرى للمرة الاولى . انظر بغية الطلب لابن العديم - ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ ص ٥٦٩ - ٥٧١ .

٤١ - ناقل مناقلة : هو بين العدو والخب . القاموس .

٤٢ - أي التف .

٤٣ - القنطارية قناة الرمح أو الرمح كله .

٤٤ - لم ترد هذه الابيات في ديوان عنتر المطبوع .

٤٥ - شمالي الاثارب ، وسيرد هنا في نص ابن العديم .

٤٦ - انظر سورة آل عمران - الايتان : ٢٦ - ٢٧ .

٤٧ - على مقربة من حماء الى الشمال الغربي منها .

٤٨ - قرب بارين تتبع محافظة حماء .

٤٩ - سترة سميكة تقوم مقام الدرع .

٥٠ - كسماء : أي سهم حربي أو ماض . القاموس .

٥١ - احد قرني حماء الى الشمال منها .

٥٢ - في الغاب قرية اسمها الآن جوبة كرد لعلها هي .

٥٣ - كان هنا سنة ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي ص ٤٢٧ .

٥٤ - ديوان قيس بن الخطيم - ط . دار صادر بيروت ١٩٦٧ ص ٨٨ .

٥٥ - انظر لباب الادب ص ٢٠٨ ويوم الحديقة من ايام والاس والخزرج في الجاهلية .

٥٦ - هو وليم جوربان - انظر ما تقدم في تاريخ دمشق لابن القلاسي .

٥٧ - من شعراء ما قبل الاسلام اسمه سهل بن شيان .

٥٨ - أي خنجر .

٥٩ - الخشت من انواع الحراب .

٦٠ - في محافظة حماء قرب محربة في احواز شيزر .

٦١ - ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠٣ قوله :

لعل عتقك محمود عواقبه

فربما صحت الاجسام بالعلل

٦٢ - سورة البقرة - الاية : ٢١٦ .

٦٣ - قرب برقعيد قريبة من الموصل بين جزيرة ابن عمر ونصيبين . معجم البلدان .

٦٤ - مرض يفقد الطائر ريشه .

٦٥ - التباخ : الشديد الصوت ، والتبجة : الاكمة . القاموس .

- ٥٧٧٦ -

- ٦٦ - ندس برجله الارض : ضربها .
٦٧ - الباقورة : جماعة من البقر ، والجزيرة كانت في وسط العاصي ، والجلالي من رواد العاصي .
٦٨ - أي مسرعة .
٦٩ - لعل : كلمة طمع واشفاق . القاموس .
٧٠ - قطاة الدابة : عجزها أو ما بين الوركين .
٧١ - لعل رسم اسمه باللاتينية Pedravant
٧٢ - المراد كما هو مرجح ، التريسة ، قرية الى الغرب من حماء ، تابعة لمحرنة في احواز شيزر .
وفي تاريخ دمشق لابن القلازي من ٣٨٢ ، تل ابن معشر ، أي العشارنة حاليا ، اوالتريسة تقع في سهل العشارنة وتبعد عن محرنة ١٦ كم نحو الشمال الغربي . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
٧٣ - يحيط بالتريسة عدة تلال عرف اشهرها بتل الدروع .
٧٤ - أي مقدم وجهه .
٧٥ - موزا ، موزة ، حناء ذو ساق طويلة .
٧٦ - كذا من باب المبالغة مع انه قال قبل قليل شهرين .
٧٧ - على مقربة من شيزر بناء المنقذين قبل الاستيلاء على شيزر .
٧٨ - على مقربة من قلعة المضيق في منطقة القاب غربي حماء .
٧٩ - الخشب فارسية تعني الحربة او السهم .
٨٠ - من اهل كفر طاب ، هو من شعراء الفريسة - قسم بلاد الشام ١٠ ص ٥٧٣ - ٥٧٤ . ترجم له ايضا ابن عساكر وياقوت والسيوطي في بقية الرواة ، توفي سنة ٥٥٣ هـ .
٨١ - صاحب قلعة جعبر .
٨٢ - محمود بن نصر بن صالح ، صاحب حلب ، انظر ما تقدم حوله في الجزء الاول من المجلد .
٨٣ - في ارمينية . معجم البلدان .
٨٤ - أسفونا الان تل اثري في جبل الزاوية ، ناحية كفر نيل ، منطقة معرة النعمان ، محافظة ادلب مساحة التل ٢٥٠ هكتار ماتزال بقايا القلعة ماثلة عليه المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
٨٥ - أي نشيط .
٨٦ - الغرلة : مخاط كل ذي حافر . القاموس .
٨٧ - تشابرا في الحرب : تقاربا . القاموس .
٨٨ - ما يزال موقع الباشورة في حماء معروفا يحمل الاسم نفسه ملاصقا للسفوح الشرقية للقلعة .
٨٩ - من رواد العاصي .
٩٠ - اليراق : تركية معناها السلاح .
٩١ - انظر قوله تعالى في سورة نوح - الآية : ١٤ : « وقد خلقناكم اطوارا » .
٩٢ - أي راعي الخيل .
٩٣ - أي مدير المطبخ .
٩٤ - في هذا اشارة الى شيخ الجبل المسؤول عن العشيشية من الاسماعيلية النزارية في المنطقة .
٩٥ - تعرف الان باسم معرزاقي ، وهي تابعة لناحية محرنة .
٩٦ - كان حصنا مكيئا الى الجنوب الغربي من معرة النعمان . معجم البلدان .

- ٥٧٧٧ -

٩٧ - اصطلاح ما يزال يستخدم في حماء يراد به وعاء منسوج من القطن (جوال) - توضع فيه الجيوب وسواها .

٩٨ - العهد المخطط

٩٩ - هو محمد بن أبي محمد بن محمد ، ولد في صقلية عام ٤٩٧ هـ ، ومات في حماء عام ٥٦٥ هـ . صنف عدة كتب نشر منها كتاب انباء نجباء الايتام - بيروت ١٩٨٠ .
١٠٠ - قلت : سريع ، ورمينا فوقاً : رشفاً . القاموس .

١٠١ - البشت : عباءة .

١٠٢ - اي رأس خنجر .

١٠٣ - يعرف حصن صهيون الآن باسم قلعة صلاح الدين ، ويلاطس الى الجنوب منها .

١٠٤ - اي يستطلع .

١٠٥ - قرب منبع نهر ابراهيم في لبنان .

١٠٦ - اثناء واسع كالبرميل .

١٠٧ - اي وجه ناعما .

١٠٨ - اي Viscount

١٠٩ - في غربي سلمية منطقة تل سلحبا اسمها تل دبين . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

١١٠ - عامل زنكي على حلب .

١١١ - الباشة : الحلقة .

١١٢ - ندى : قذف .

١١٣ - نجيب في سيره : جد واسرع .

١١٤ - خان عذراء والقطيفة .

١١٥ - في نيار بكر . معجم البلدان .

١١٦ - من حصون نيار بكر .

١١٧ - شعر ننب عجل البحر .

١١٨ - على مقربة من إربل .

١١٩ - ليس في ديوانه المطبوع .

١٢٠ - أجرت المرأة : أياحت نفسها باجر . القاموس .

١٢١ - لم ترد هذه القصيدة في ديوانه المطبوع .

١٢٢ - ديوانه من ٢٥٥ .

١٢٣ - ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٤ - ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٥ - ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٦ - سورة النحل - الآية : ٥٣ .

١٢٧ - هي ايضا اسمرت ، في نيار بكر .

١٢٨ - هو ابن الجوزي صاحب المنتظم وغيره من الكتب

١٢٩ - اي الوزير نظام الملك . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المدخل

١٣٠ - الفقاع شراب يحضر من الشعير .

١٣١ - اي صاحب املاك كبيرة في المدينة .

١٣٢ - كان في حلب أيام شمال بن صالح ، له رحلة نقل عنها ابن العديم في بغية الطلب ، وياقوت والقاضي حين ترجم له في اخبار الحكماء من ١٩٢ - ٢٠٨ .

١٣٣ - سورة يس - الآية : ٦٨

١٣٤ - اي الجبلية ، فكوه بالفارسية : جبل .

- ٥٧٧٨ -

- ١٣٥ - دشت بالفارسية : واد ، صحراء ارض واسعة ، وخيز : وقوف . نهوض ، ارتفاع ، رفرفة .
- ١٣٦ - من روافد نهر الخابور
- ١٣٧ - القرنصة سقوط الريش ، فاذا شرع البازي القرنصة ينبغي ان يفرد له بيت لا يدخله الفبار والنخان ، لهذا يفرش حوله الصمصاف .
- ١٣٨ - يدعوها المصريون الان : السيد قشطه .
- ١٣٩ - على هامش الاصل : « وهو الطيهوج » .
- ١٤٠ - ابن علم النين علي كرد صاحب حماء .
- ١٤١ - قرب منطقة القاموس .
- ١٤٢ - ما تزال القرى تحمل الاسماء نلسمها ، وهي تابعة لناحية عين الشرقية - منطقة جبلة - محافظة اللاذقية .
- ١٤٣ - الكندر : مجثم البازي . القاموس .
- ١٤٤ - جمع قلت ، وهي النقرة في الارض ، يستقنع فيها الماء .
- ١٤٥ - اي الصائد . القاموس - مائة حشر .
- ١٤٦ - من انواع طيور الماء . انظر البيزرة لبازيار العزيز الفاطمي - ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٥٦ .
- ١٤٧ - اي يقطع الفولاذ .
- ١٤٨ - انظر البيزرة ص ١١٨ - ١١٩ .
- ١٤٩ - استرخاء . القاموس .
- ١٥٠ - شيء يشبه الحية . القاموس .
- ١٥١ - سباقا البازي : قياه .
- ١٥٢ - وشب .
- ١٥٣ - بنجت : اختبات .
- ١٥٤ - قرية في سهل العشارنة تتبع منطقة محربة في محافظة حماء ، وتبعد عن محبرة / ١٢ كم باتجاه الغرب .
- ١٥٥ - كنانة أو جعية .
- ١٥٦ - البالة : حربة أو سكين طويلة ، تعريب كلمة « بالا » التركية .
- ١٥٧ - اي الحبل من الرمل اللاطيء بالارض ، وسهل بين حزينين .
- ١٥٨ - اي تتلوى .
- ١٥٩ - طائر يشبه مالك الحزين .
- ١٦٠ - لعله من انواع البازي ، او انه تصحيف : « الزرق » انظر البيزرة ص ٧٩ .
- ١٦١ - اطفح وابويط ونهشور من قرى الصعيد الاننى على النيل معجم البلدان .

المحتوى

- ٣ - توطئة
- ٦ - اسامة بن منقذ من تاريخ دمشق لابن عساكر
- ١٤ - اسامة بن منقذ من خربة القصر
- ٦٥ - اسامة بن منقذ من معجم الادباء
- ٩٨ - اسامة بن منقذ من بغية الطلب
- ١١٤ - اسامة بن منقذ من وفيات الاعيان ١٢٠ - اسامة بن منقذ من الملاحى للمقريزي .
- ١٣٢ - كتاب الاعتبار
- ١٣٤ - الباب الاول
- ١٣٦ - حروب واسفار
- ١٣٨ - من شيزر الى دمشق
- ١٤٠ - من دمشق الى القاهرة
- ١٥٥ - اسامة يعود الى دمشق
- ١٦٤ - حروب مع الكفار والمسلمين
- ١٨١ - الحرب مع ابن ملعب
- ٢٠٨ - اذا انقضت المدة لم تدفع المشجاعة ولا الشدة .
- ٢١٨ - مع الاسود وسائر الحيوانات
- ٢٢٦ - تجارب حربية
- ٢٢٧ - قصد الفرنج دمشق .
- ٢٤٠ - طبائع الفرنج واخلاقهم .
- ٢٤٨ - من عجائب القلوب
- ٢٧١ - الباب الثاني - نكت ونوادر
- ٢٨١ - الشفاء بطرق غريبة
- ٢٨٧ - الباب الثالث - اخبار الصيد
- ٣١٥ - الخاتمة
- ٣١٧ - الملاحق
- ٣١٨ - علي بن السلار
- ٣٢١ - عباس بن ابي الفتوح
- ٣٣٦ - الدواشي والهوامش .